حسام باظة

عزرائيل يصل أولاً
مجموعة قصصية

الكتـــــــــاب: عزرائيل يصل أولاً – مجموعة قصصية
المـــؤلـــــف: حسام باظة
الغـــــــــلاف: أ/ إيمان صلاح
المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة
رقـــم الإيـــداع: 2014/10359
الترقيـم الدولـي: 978 – 977 – 6447 – 76 – 9
الإخـراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

حسام باظة

عزرائيل يصل أولاً

مجموعة قصصية

الإهـــداء

إلى كل من يحمل بين ضلوعه قلبًا يشعر بالآخرين،،

إلى كل إنسان يستحق أن ينتمى للإنسانية،،

أهدى مجموعتي هذه،،

حسام باظة

تقديم المجموعة

بقلم: الناقدة منى ماهر

الكتابة فن، والكاتب فنان، وعلى الفنان أن يُتقن رسم لوحته حتى تنال إعجاب الجميع قد تهتز الريشة قليلا، لكن فى النهاية تخبرنا اللوحة الفنية أن هناك فنانًا فى الطريق....

اكتب، واترك الحكم للمتلقى، فإما أن يبقى كتابك فى الذاكرة، وإما أن يختفى سريعا...

يقول حسام باظة فى أحد قصصه:

" انفتح أمامة الباب الحديدى الكبير، صوت مِصْراعى الباب كاد يصم أذنيه، وضوء الشمس الحارقة كاد يذهب ببصره، خرج من

الباب بخطى متثاقلة، وقد خَطَّ الزمان على جبينه ورسم على وجهه بيده الثقيلة خرائط وطرقات"

أتمنى أن يتمكن الكاتب من رسم خرائط وطرقات خاصة به يعرفها القارىء ويمشى فيها بإرادته حتى نقطة النهاية.

منى ماهر

المقدمة

إن النفس البشرية تتوق إلى القيم والأخلاق والمبادىء السامية،، إلى علاقات سوية بين البشر،، الى الحب والرومانسية،، تنظر حولها لتبحث عنها فإن لم تجدها على أرض الواقع عاشتها فى مخيلتها وحلقت معها فى سماء الخيال،، كما أنها تتأثر بالأحداث التى تجرى من حولها من أفراح وأتراح،، من نجاحات وإحباطات،، من معاناة تحدث فى مجتمعها الضيق أو على نطاق أوسع،، قد تجعلها تفقد الأمل وتصاب باليأس.

من هنا جاءت مجموعتى القصصية هذه لتسبح فى أعماق النفس البشرية وأتمنى أن تحوز إعجاب القارىء الكريم.

حسام باظة

النافذة الزجاجية

تناهت إلى سمعي جلبة وضوضاء قادميْن من الشارع الكبير، الذي تطل عليه نافذة غرفتي في هذا الحي الراقي، من هذه المدينة الكبيرة. تبادر إلى ذهني شيء ما، سارعت بالنظر إلى الشارع عبر زجاج النافذة المضبب، الذي تراكم عليه بخار الماء نتيجة البرودة الشديدة بالخارج، ودفء الغرفة بالداخل. كنت متدثرًا بما يكفي من ملابس ثقيلة، وحين لامس وجهي الزجاج البارد -وأنا أنظر من خلاله- سرت في جسدي رعدة خفيفة، نظرت صوب الناصية حيث كانت تجلس بالفعل. صدق حدسي؛ فقد عادت مرة أخرى هذه السيدة، المتوسطة العمر، الممزقة

الثياب الثائرة الشعر، كأنها جنية خرجت لتوها من ماء النهر تحتضن بعض الأشياء والمتعلقات التي لا قيمة لها، إلا إنها تحتضنها بشدة خائفة من أن يأخذها منها أحد.التفّ حولها الصبية والبوابون وسائسو الجراجات، وبعض المارة من سكان المنطقة. بدأت تمارس عادتها في السباب بألفاظ خارجة تخدش الحياء، مما جعل بعض المارة ينصرفون. أخذت في إلقاء الشتائم على كل من حولها، وعلى كل شيء، تنهال من فمها كالمطر المتأهب للنزول في أية لحظة في الجو شديد البرودة،بدأوا يضحكون ويحاولون جذب المتعلقات الخاصة بها، التي تحضنها بقوة، فازداد تمسكها بها، وازداد سبابها، وبدأت تلوح بذراعيها المكشوفتين لتهديدهم، كما لو كانت ستنهال عليهم ضربًا، فيزداد ضحكهم ويفرون من أمامها ويعودون مرة أخرى.

ألقت بمتعلقاتها في مكانها المعتاد، بجانب حائط الجراج على الناصية وجلست فوقها، فانكشف بعض جسدها حين جلست، فالتف الصبية يتفرجون.

عندما اختفت من الشارع منذ عدة أشهر، سألت عنها أحد العساكر الواقفين أمام البنك الكائن على الرصيف المقابل لمنزلي، فقال لي: إن أحد الأشخاص المسئولين بالدولة يسكن في الفيلا الموجودة في آخر الشارع الموازي، وإن أولاده يتضررون من منظرها حينما يمرون

من هنا، كما إن أصوات شتائمها وصراخها تصل إلى مسامعه ليلاً، فأصدر أوامره بالقبض عليها وترحيلها من هذا المكان، وهاهي تعود مرة أخرى إلى مكانها على الناصية.

منذ سنوات، وأنا أرى هذة السيدة، كانت هادئة في أول الأمر، إلا أن استفزاز الصبية لها زاد حالتها تعقيدًا، وزادها شراسة وعدوانية. كنت أصحو ليلاً على صوت صراخها وشتائمها، فأسرع إلى النافذة لأنظر ماذا يحدث، فأرى أحد الشباب من سائسي الجراجات يحاول استدراجها للداخل، فيما تنهال هي عليه بالشتائم واللكمات. كنت أضيء مصباح حجرتي فينطلق الضوء خارجاً منها إلى الشارع، فينصرف مسرعًا خشية أن يلحظه أحد.

في أحد الأيام، سألت بوابًا عجوزًا في الشارع عن أمر هذه المرأة، فأخبرني أنها كانت من سكان المنطقة، وكانت امرأة جميلة وهادئة ومنمقة، إلا أن الأحداث توالت عليها فآلت إلى ما آلت إليه. كنت أحياناً أسمعها ليلاً تسب أحد الأشخاص المجهولين، وتصفه بالخيانة، وبأنه استولى على أموالها، وكنت أسمعها تتحدث عن أطفال لها حرمها من رؤيتهم توقعته زوجها، هجرها أو تركها لأجل أخرى؛ حيث كانت تتحدث بكلام غير مترابط الأوصال عن امرأة أخرى تصفها بـ (الأفعى).

هدأت الضوضاء قليلاً في الشارع، مسحت بكفي جزءًا من زجاج النافذة لأرى من خلال البخار الذي ازداد تراكمه من جراء أنفاسي الملتصقة بالزجاج، تطلعت من خلال الدائرة النظيفة التي أحدثتها بزجاج نافذتي، إلى الشرفات من حولي، فرأيت وجوهًا عابسة غاضبة من عودة هذه المرأة، ونزلت ببصري إلى الشارع، فوجدت وجوهًا فرحة متهللة لعودتها؛ وجوه الصبيان والفتية الذين يلتفون حولها حيث ستكون مبعث ترفيه وتسلية لبعضهم، وستكون هدفًا للبعض الآخر من المتسللين عبر الجراجات ليلاً.

بدلت ملابسي على عجل، ونزلت إلى المخبز القريب واشتريت فطيرة صغيرة لها لتأكلها. مددت يدي إليها بالفطيرة، فانكمشت في ملابسها الممزقة وحاولت تغطية ذراعيها وساقيها المكشوفتين. ظللت مادًا يدي بالطعام، فحملقت في عيني مليًا، ثم بدأت تمد يدها بحذر وتوجس شديدين، وفجأة اختطفتها من يدي وبدأت تأكلها بنهم.

انصرفت إلى بيتي مسرعًا من شدة البرد، وفي المساء لم ينقطع سبابها وصراخها، ولم أستطع النوم. وقبيل الفجر ازداد صراخها وسبابها، وسمعت مشاجرة بين اثنين من الفتيان، كانت مشاجرة خافتة تكاد تكون صامتة، فقد كانا حريصين على ألا يسمعهما أحد وهما يتشاجران. نظرت من خلال زجاج النافذة، فتبينت أنهما يتشاجران لأن

كلاً منهما اكتشف أن الآخر يتسلل ليلاً للإيقاع بها، أسرعت بإضاءة مصباح غرفتي، فتسلل الضوء خارجًا إلى الشارع، فتنبه المتسللان بأن هناك من يرصدهما، فانطلقا مسرعين إلى داخل الجراج.

نظرت إليها، فوجدتها ترفع بصرها تجاه مصدر الضوء، تجاه نافذتي، وتحملق فيها مليًا بنفس النظرة التي رمقتني بها حين مددت يدي إليها بالطعام، بعد قليل لف السكون أرجاء الشارع وأطفأت مصباحي واستسلمت للنوم.

استيقظت في الصباح الباكر على صوت ضوضاء وجلبة وصوت (سارينه) سيارة الشرطة، فنظرت مسرعًا عبر الزجاج المضبب البارد، فوجدت أفراد الشرطة يقتادون المرأة إلى (البوكس)، والناس تلتف حولهم يشاكسونها، فلا تسبهم ولا تشتمهم. كانت ترتجف، وكانت تنظر حولها كمن يبحث عن شيء ما أو عن أحد الأشخاص، وحينما همت بالصعود إلى السيارة، رفعت عينيها تجاه نافذتي، ونظرت مليًا إليها، ثم اختفت داخل سيارة الشرطة.

الشقة المقابلة

لم أكن أعرف أن حياتي ستتغير بهذا الشكل. كيف حدث هذا وبهذه السرعة؟

أفقت على صوت الإذاعة الداخلية في الطائرة، يطلب منا أحدهم ربط أحزمة الأمان، فنحن على وشك الإقلاع.

أعمل موظفًا في شركة كبرى، يحسدني الكثيرون على عملي هذا. دخلي مرتفع، ساعات عملي قليلة؛ ففي الرابعة مساءً أكون في بيتي، أجهز غذائي؛ فأنا أعيش بمفردي. اليوم طويل والوقت ملكي وحدي، أنام قليلاً لأستيقظ مساءً إنسانًا آخر، وكأنني أثناء النوم تقوم كائنات غريبة بتحويلي إلى إنسان مختلف.

بدأت الطائرة في الصعود. من النافذة، أصبحت النظرة أشمل ونطاق الرؤية أوسع، التفاصيل تتلاشى، اختفى البشر الذين تمتلئ بهم الشوارع، اختفت السيارات و المباني، أصبح كل شيء كتلة واحدة متماسكة تسبح في بحر أصفر من الرمال، إنها القاهرة من أعلى.

كنت أستيقظ مساءً كل يوم نشيطًا مرحًا خفيفًا، أقفز إلى الحمام ثم أعود لأقفز داخل ملابس السهرة، أغني وأرقص، أطلق صفيرًا عاليًا يسمعه الجيران. أنا الموظف المجتهد المسئول الرصين في عملي صباحًا، أصبح شابًا نزقًا في المساء، وكأنني قد سكنني جني وأنا نائم.

ألتقط مفاتيح سيارتي وأنطلق لتبدأ المعركة، وميدان المعركة بالنسبة لي ليس ميدانًا واحدًا بل ميادين عديدة لكل منها سحره الخاص: فنادق، كباريهات، بواخر نيلية. أصول وأجول، أمتلك أسلحتي وأعرف كيف أستخدمها بمهارة، تتساقط الضحايا أمامي، كل ضحية لها سلاح يصلح معها؛ هذه المرأة ستقع بسلاح المال، هذه بسلاح اللسان العذب، هذه بسلاح الرغبة والشهوة. أستخدم أسلحتي بذكاء وأعود إلى بيتي بضحيتي فائزًا منتصرًا.

لم أعد أرى شيئًا سوى الرمال الصفراء الباهتة من خلال السحب الخفيفة، أعلن قائد الطائرة أننا سنحلق عما قليل على مسافة ٢٥ ألف

قدم فوق سطح الأرض.

أصبحت معروفًا لدى كل الأماكن التي أرتادها كعميل مميز سخي، الكل يتسابق لخدمتي ويطلقون علي اسم "الباشا"، فتيات الليل أصبحن صديقاتي يتسارعن إلي، لم تعد علاقتي بهن مجرد لقاء عابر يقضي كل منا فيه رغبته من الآخر فقط، بل أصبحن يحكين لي همومهن ومسئولياتهن، وكثيرًا ما كنت أرى دموعهن، لسن سعيدات كما يظن الناس، لم يعدن يستهويونني. أبحث عن نساء لسن محترفات للهوى، أكتشف مواهبهن وأكشفها لهن بنفسي، كالغواص الذي يبحث عن اللآلئ في أعماق البحر.

حتى جاء اليوم الذي رأيتها فيه، كنت أستعد للنزول مساءً من بيتي أغني وأصفّر تتملكني حالة من الطرب، الحالة التي تتلبسني بسبب ذلك الجني الخفي وأنا نائم.

على السلم لاحظت أن باب الشقة المقابلة لي والمهجورة منذ فترة طويلة مفتوح، ولاحظت بعض العمال يقومون بأعمال الإصلاح والتشطيب فيها، أسرة جديدة استأجرت الشقة لتسكن فيها، عرفت ذلك فيما بعد. هذا لا يهمني، هممت بالانصراف وإذا بي ألتقي بها على السلم، هذا الوجه الملائكي البريء من هذه الفتاة الحسناء

الوادعة؟ حدقت في وجهها بجرأة وقحة، حتى إنها كادت تتعثر على السلم، كانت تنظر إلى الأرض، ودخلت مسرعة إلى الشقة المقابلة.

استكملت طريقي، جبت ميادين المعركة ولكن شيئًا ما حدث بداخلي، صورتها معلقة في ذهني.

عرفت بعد ذلك أن الأسرة الجديدة هي أسرة الأستاذ صابر، المكونة من ثلاثة أفراد: الأب، والأم "الحاجة وفاء"، وابنتهما "الملاك البريء" رنا.

نظرت من نافذة الطائرة، كل ما حولي تحول إلى اللون الأبيض، السحاب في كل مكان كالقطن الثائر، شعرت بسمو غريب كأنني ذاهب في رحلة إلى الجنة.

تغيرت طريقة حياتي بعد الوافدين الجدد، لم أعد أنزل من البيت مساءً، بل لم أعد أنام بعد عودتي من العمل، لأني كنت أقف في شرفة المنزل لأشاهد فتاتي الحسناء وهي عائدة من الجامعة كل يوم، ثم مللت من المشاهدة عن بعد من خلال الشرفة، كنت أنزل إلى الشارع وأقف على الناصية لأراها تمر أمامي عن قرب، أراها وجهًا لوجه كل يوم، حاولت الحديث معها في أحدى المرات ولكنها لم ترد.

في هذه الأثناء لم يكن يتوقف تليفوني المحمول عن الرنين،

صديقاتي القديمات، أصحاب الملاهي الليلية، مديرو الفنادق، يسألون عني وعن سبب غيابي، وكانت حججي لهم لا تنتهي.

لم يكن أمامي حل آخر، تقدمت لخطبتها ووافق والدها. أصبحت لي، استخدمت معها كل أسلحتي لأروضها، لأركعها، لابد أن أهزمها! ولكن لم يحدث. قوية لدرجة تستعصي على فارس مغوار مثلي، وعرفت سر قوتها: إيمانها الشديد. إنها تحفظ القرآن، تصوم كل اثنين وخميس، شديدة الالتزام بتعاليم الدين. وعرفت السلاح الذي يجب أن يستخدم معها، بدأت أصلي ولم أكن أفعل من قبل، أصوم معها وأذهب إليها لنفطر سويًا، ونصلي المغرب جماعة خلف الأستاذ صابر. أصبحت ترن على هاتفي المحمول وقت صلاة الفجر فأذهب لأصلي في المسجد مع والدها، وأحبتني بل ذابت فيّ حبًا، انهزمت أمامي، بل لقد أحبتني الأسرة كلها، الحاجة وفاء تعتبرني ابنها. ولكن ماذا حدث؟؟

كنت أفعل ذلك أمامها فقط في البداية، الآن أصبحت أفعل ذلك أيضًا وأنا منفرد في بيتي. لم أعد أشرب الخمور، أصبحت أقرأ القرآن مع أنها لا تراني، أصبحت أصلي جميع الصلوات المفروضة حتى في العمل، أحسست بأن هناك بذرة ما نبتت في قلبي وبدأت تنمو وتنمو كل يوم، الأكثر من ذلك أنني بعد شهور فوجئت بي أبكي وأنا أقرأ القرآن.

لقد تغيرت بالفعل، سكن الايمان قلبي وأصبحت أسعد أوقاتي تلك التي أقضيها معهم في بيتهم، أحببتها من كل قلبي.

انتبهت على صوت قائد الطائرة، يخبرنا بأننا الآن نطير على ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق سطح البحر، وعلينا أن نفك الأحزمة.

في أحد الأيام ذهبت إليهم مساءً، لأجلس مع أسرتي الجديدة الجميلة، والدي الأستاذ صابر وأمي الحاجة وفاء، ولكن فوجئت بالصاعقة التي لم أحسب لها حسابًا، قابلني الاستاذ صابر بوجه عبوس ونظرات حادة، سألته عن رنا، فأخبرني أنها نائمة ماذا حدث؟؟ كيف هذا؟؟

ألقى والدها في وجهي قنبلة أفقدتني توازني، قال لي: أنت ممثل بارع قدير، استطعت أن تخدعنا كل هذه الفترة. أنت شخص منحرف، سيء الخلق. لقد عرفنا عنك كل شيء. الحمد لله أننا ما زلنا على البر، لقد أخبرني أحد الجيران بكل شيء عنك وعن سيرتك السيئة.

حاولت أن أتكلم، فقاطعني بصوت مرتفع: كفاك تمثيلاً.

حاولت الدفاع عن نفسي، لا فائدة. ناديت على رنا بأعلى صوتي، لا فائدة. خرجت من عندهم أحدث نفسي كالمجنون، لقد تبت إلى الله! إنه يقبل التوبة، لماذا لا يقبلها الناس؟ حاولت الاتصال بها، هاتفها مغلق. جلست خلف باب شقتي أنتظر سماع صوت باب شقتهم، فأنظر

من العين السحرية لعلي أراها خارجة فأنزل خلفها وأكلمها، لا فائدة. لم تخرج لأيام وأيام، وأنا أنتظر، لا فائدة

عدت في أحد الأيام من عملي، فوجدت قفلاً كبيرًا على باب الشقة من الخارج، سألت فعرفت أنهم أنهوا عقد الإيجار مع صاحب الشقة، وغادروا إلى حيث لا أحد يعلم.

وأخذت أجازة لفترة من العمل، أقرأ القرآن وأصلي في المسجد.

أفقت على صوت ركاب الطائرة بملابسهم البيضاء الناصعة المتشابهة، يرددون في آن واحد وبصوت خاشع عذب: ((لبيك اللهم لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك.)) انهمكت معهم في التلبية، في حين انطلق صوت قائد الطائرة يخبرنا أن نربط الأحزمة، لأننا على وشك الهبوط في المدينة المنورة.

ذهبت لكي أؤدي مناسك الحج، وأغسل ذنوبي وأدعو الله أن أنساها.

المعطف القديم

جلست في بيتي على الأريكة الوثيرة في إحدى ليالي الشتاء الباردة، أتابع شاشة التلفاز، وأنا أرتدي روبًا ثقيلاً، وجوربًا سميكًا، وتعتنق يدي كوبًا من الشاي الساخن لعله يخفف من حدة شعوري بالبرد. كانت عيناي متسمرة على الشاشة، ولكني شارد الذهن، متوتر. مشاكل العمل وضغوط الحياة، تدفع بي إلى طريق مسدود. صعوبات الحياة أطبقت على صدري وأغلقت عقلي، فلم يعد قادرًا على التفكير. قلبي يخفق بشدة، أشعر بخوف خفي، بتوجس ورهبة كامنين في نفسي، كمن اضطرته الظروف أن يركب سفينة صغيرة في بحر هائج وهو يعاني من رهاب البحر؛ فهو طوال الوقت متوجس من غرق السفينة، ونزوله

إلى بحر هائج متلاطم الأمواج.

اخترقت سمعي طلقات رصاص وصرخات عالية قادمة من التلفاز، ازداد شعوري بالانقباض، وضغطت على (الريموت) لأغلقه، ارتشفت بعضًا من الشاي الساخن. تراءى أمام عيني وجه أبي (رحمه الله)، تنهدت بصوت مرتفع:"أين أنت يا أبي؟"

حدثت نفسي: "كم كان حضنك مبعث الأمان بالنسبة لي." عندما كنت أرتمي في أحضانه، كانت تتبدد جميع مخاوفي، ويسافر الخوف وترحل الأوهام، تتبدد كالبخار.

كنت أشعر وأنا في أحضانه، بأنني أقوى إنسان في الوجود. كانت رائحته وأنا أدفن رأسي في صدره، مصدر قوة ومبعث أمل، حتى بعد أن مرض ولازم الفراش - وقد هزل جسده ونال المرض منه، فأصبح هيكلا لإنسان مغطى بطبقة رقيقة من الجلد- كان لا يزال مصدر اطمئنان لي.

أتذكر جيدًا آخر حضن احتضنه لي أبي قبل وفاته بيوم واحد؛ كان ممددًا على فراشه، وقفت أمامه أتأمله أحاول أن أخزن صورته جيدًا في عقلي حتى لا تنساه ذاكرتي، تذكرته وهو رجل قوي وأنا طفل صغير، أما الآن فقد انعكس الموقف تمامًا، فأنا الشاب القوي وهو الضعيف

المريض. نظر إلي بعينيه الغائرتين الذابلتين، فقرأ بحاسة الأب في عيني خوفي ورهبتي، فتح ذراعيه ببطء شديد ووهن بالغ، ابتسم لي ابتسامة ضعيفة فبدت من خلالها أسنانه البيضاء التي لم ينل منها المرض، ارتميت في أحضانه، ضم ذراعيه حولي. لقد ضعفت ذراعاه ولم تعد تقوى على اعتصاري بقوة كما كان يفعل في الماضي. دفنت رأسي في صدره، شممت رائحته، فشعرت بقوة تسري في أوصالي، إنها قوته تبدد ضعفي، بدأت أوهامي تتبخر ورهبتي تغادر قلبي، فتح ذراعيه وأطلقني من بين يديه، قمت واقفًا أمامه مرة أخرى وعلى وجهي ابتسامة، "لقد استطعت يا أبي أن تكون الملجأ والملاذ، استطعت أن تبدد خوفي وتزيل ضعفي رغم مرضك وضعفك." (حدثت نفسي). ولكن عندما نظرت فى وجهه، وجدت دموعًا غزيرة منهمرة من عينيه، وجدته يبكي بصمت، دموعه التي لم أرها في حياتي سوى مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، لقد أمدني وهو يحتضنني بقوته، تنازل لي عن آخر ما يمتلك من قوة، أمدني بآخر قطرة من رصيد القوة الباقي في روحه المغادرة وجسده الواهي. "يااااه يا أبي، عطاؤك لا حدود له تعطي حتى آخر رمق!"

ارتشفت بعضًا من الشاي، وكان قد بدأ يبرد، كانت يداي ترتعشان وكدت أسمع نحيبًا داخليًا، وفجأة لمع في ذهني خاطر أضاء مثل عودة

الكهرباء في ليلة مظلمة بعد انقطاعها، وضعت كوب الشاي على المنضدة، هرولت إلى حجرة أبي المغلقة، فتحت دولاب ملابسه، وجدت معطفه القديم معلقًا، المعطف الذي احتفظت به أمي بعد وفاته، أمسكت بالمعطف واحتضنته، دفنت رأسي في صدره،" يااااه! رائحة أبي." دفنت رأسي بالمعطف أكثر وأكثر، بدأت أشعر بأن قوة ما تسري في أوصالي وتبدد خوفي وتزيل ضعفي، بدأت الهواجس والأوهام تتبخر كأن لم تكن. أعدت المعطف إلى مكانه والتقطت من جيبي منديلاً لأمسح به دموعي المنهمرة.

بائع الجرائد

رجل في منتصف العمر، متوسط الطول، قوي البنية، ذو وجه صارم، يتوسطه شارب أسود كثيف، يرتدي جلبابًا واسعًا، ويرمق المارة بنظرات حازمة حادة. إنه عم سيد، بائع الجرائد الذي يقف أمام الكشك الخاص به على ناصية الشارع الرئيسي في منطقتنا، يفرش الجرائد على الرصيف الواسع، وزوجته تجلس مستندة بظهرها إلى الحائط، وفي حجرها طفل صغير، ترضعه أحيانًا وتداعبه أحيان أخرى.

كان عم سيد من ذلك النوع الذي لا يدل مظهره على مخبره؛ فقد كان طيب القلب، ودودًا ومحبوبًا من كل سكان المنطقة، كنت أراه وأنا أشتري الجريدة اليومية لأبي كل صباح منذ أن كنت طفلاً صغيرًا.

لم يتغير مظهر عم سيد عندما كبرت وصرت شابًا يافعًا، إلا ما ظهر من الشعر الأبيض الذى غزا رأسه وشاربه وحوله إلى اللون الفضي، وفقدانه بعض الكيلوجرامات من وزنه. أما الطفل الصغير الذي كان في حجر أمه، فقد أصبح غلامًا يساعد أباه. والأم اختفت، ولا أدري إن كانت قد ماتت أم أن عم سيد قد استغنى عنها فأطلق سراحها.

مرت سنوات وتوفي والدي، ولكني ما زلت أذهب إلى عم سيد يوميًا كعادتي لشراء الجرائد، مع أني لم أكن من هواة قراءة الجرائد؛ فالإنترنت كان يغنيني عن ذلك. مع مرور الوقت، تغير المشهد؛ فعم سيد أصبح نحيفًا، يجلس على كرسي خشبي قديم، وقد أصبح شعر رأسه وشاربه كالقطن الثائر، وأصبح الغلام الصغير شابًا يافعًا، يقوم بكل مهام والده بخفة ونشاط دون ملل أو كلل، وعم سيد يحتفظ لنفسه بمهمة جمع النقود.

في أحد الأيام، سمعت نقاشًا حادًا بين عم سيد وابنه، ما لبث أن تحول إلى مشادة كلامية وارتفعت أصواتهما. وفهمت أن ابن عم سيد لم يعد مقتنعًا ببيع الجرائد والمجلات والكتب مدعيًا أنها أصبحت سلع (العجائز)، وأن لديه مشروعًا سوف يدر عليهم ربحًا بأضعاف ما تدره هذه الأوراق الصدئة؛ كان يريد أن يحول نشاطه إلى بيع الموبايلات ومستلزمات الكمبيوتر.

ولأول مرة، لا أرى في عيني عم سيد تلك النظرة الحازمة الحادة. رأيت دمعة كبيرة تحت جفنيه تأبى أن تنزل وترفض أن ترحل، رأيته يجلس متهدلاً على كرسيه الخشبي، وخيل لي أني أسمع دقات قلبه، فالجرائد والكتب بالنسبة له أولاده وبناته، قضى عمرًا يحتضنها ويقرؤها حتى أصبح على درجة عالية من الثقافة والمعرفة، بالرغم من عدم حصوله على أي قسط من التعليم سوى تعلم القراءة والكتابة. ولم يكن ليستسلم لرغبة ابنه، وكان يبدو على وجهه الاستنكار والرفض القاطع، أخذت جريدتي وانصرفت مسرعًا حتى لا أسبب لهما الحرج.

مرت السنوات، وتخرجت في الجامعة والتحقت بعمل جيد وانشغلت بعملي، أدارتني طاحونة الحياة، طحنتني رحاها، وأعطيت عملي كل وقتي وجهدي، وما لبثت أن أخذت أمي وانتقلنا إلى شقة جديدة بمنطقة أخرى، تلائم وضعي الاجتماعي الجديد، حيث إنني أصبحت من المرموقين في المجتمع.

وفي أحد الأيام، وأنا عائد من العمل، قفز إلى ذهني عم سيد بائع الجرائد، لم أره منذ سنوات. وانحرفت بسيارتي إلى شارع يؤدي إلى منطقتنا القديمة، حيث يقبع عم سيد منذ الأزل. وصلت إلى هناك، بحثت عن الكشك ولكني وجدت مكانه محلاً كبيرًا لبيع الموبايلات ومستلزمات الكمبيوتر، ووجدت ابن عم سيد الشاب اليافع، يقف أمام

المحل وهو يستمع إلى صوت غناء عشوائي رديء ينبعث من سماعات كبيرة بجواره. نظرت أبحث عن عم سيد ولم أجده، رفعت بصري، فوجدته داخل برواز خشبي صغير على حائط في المحل، وقد كتب تحتها بخط أسود كبير: "الفاتحة على روح المرحوم."

مفيش حاجة

أحب المرأة في صورتها البدائية المتجردة، صورتها الأولى، صورة حواء؛ حيث لا مكياج، لا إكسسوارات، لا مجوهرات، ولا كوافير. لم تكن لي تجارب سابقة، وإنما كل تجاربي من واقع خيالي، كنت مشغولا بالدراسة، الدراسة وفقط. مما جعلنى متفوقًا دائمًامنذ صغري وحتى الآن، وقد وصلت إلى السنة الثانية من كلية الطب، كنت على مشارف الامتحانات أذاكر، ولا أغادر غرفتي إلا للضرورة القصوى.

كانت (شربات)، الفتاة التي تأتي إلى بيتنا مرة كل أسبوع لتساعد أمي في تنظيف المنزل، هي حواء التي أنشدها؛ فتاة خمرية البشرة، قوية مشدودة القوام، كأنها وتر ينتظر أصابع العازف الماهر، تتهدل بعض

خصلات شعرها الأسود الناعم في غير انتظام تحت طرحتها السوداء، تتدور وتتكور أعضاؤها كسيمفونية موسيقار حاذق، تتحرك في البيت في عباءتها السوداء اللامعة كلاعبة باليه محترفة.

في هذا اليوم، كنت في غرفتي كالعادة، وغرفتي مثل لوحة سيريالية فوضوية؛ ولكنها فوضى منظمة؛ فهذا الكتاب الملقى على الأرض أعرفه جيدا. وهذا القاموس الملقى على السرير، وهذه الأقلام المبعثرة على أرضية الغرفة. تبدو الغرفة مبعثرة ولكني أحفظ كل تفصيلة فيها، ولذلك لم أكن أرغب فى دخول أحد إليها، و اعترضت حين طلبت أمى دخول (شربات) إليها لتنظيفها. وتحت إلحاحها وافقت بشرط أن أتابع عملية التنظيف بنفسي، حتى لا يحدث شيء يفسد علي ترتيب أشيائي.

دخلت حواء، أأأأ أقصد (شربات) إلى غرفتي، لقد تأهبت لعملية التنظيف؛ فخلعت عنها عباءتها السوداء، وكانت تلبس تحتها جلبابًا ملونًا، قد رقّ من القِدَم فأصبح شفافًا، ويبدو أنه قد ضاق عليها شيئًا ما، فقصر قليلاً ليظهر جزءًا من ساقيها، ويحدد تفاصيل جسدها. انصرفت أمي إلى المطبخ، فوجدت نفسي أنا وهي منفردين في الغرفة الضيقة. لم تكن تكترث لوجودي، انهمكت في عملها، أمسكت هي بكتاب ملقى على الأرض، فأسرعت إليها لأخذه منها، لمست يدي يدها، فشعرت بقشعريرة. تركت لي الكتاب، ولم تكترث أيضًا بهذه اللمسة،

يبدو أنها لا تريد أن تظهر إعجابها بي، أكيد هي مفتونة بي كذلك، ولكن الفرق الشاسع بيني وبينها يخيفها. قلبي يدق كبندول الساعة، ابتعدت ناحية الباب، ولكني فكرت في شيء ما، قررت أن أكرر هذه اللمسة السحرية مرة أخرى أمسكت هي بالأقلام الملقاة على الأرض، انتهزت الفرصة وأسرعت لآخذ منها الأقلام، فارتطم جسدي بجسدها، شعرت بطراوته. أخذت الأقلام ولكنها أيضًا لم تكترث، يبدو أنها تخاف أكثر من اللازم. ولكن من المؤكد أن حبي متغلغل في قلبها، ولكنها لا تريد أن تبوح. أبتعدت مرة أخرى ناحية الباب، أصبح قلبي مثل الأمواج الهائجة، أردت أن أكرر تجربة الارتطام. جثت هي على ركبتيها لتمسح الأرض بالماء، ظهرت مفاتنها، بالفعل هي حواء في صورتها البدائية، بدأت تمسح تحت السرير، اقتربت منها، وانحنيت بجسدي متظاهرًا أني أنظر معها تحت السرير لاستكشف ماذا يوجد تحته، أثناء انحنائي، انزلق (الشبشب) الذي ألبسه بفعل الأرض المبللة بالماء، ففقدت توازني وسقطت على الأرض باتجاه الأمام، فاصطدم رأسي بقائم السرير الخشبي، شعرت بدوار خفيف، تماسكت بسرعة ونهضت. نظرت إلي باندهاش واستنكار، وقالت: مالك يا بيه؟ فيه إيه؟ إنت إيه اللي نزلك تحت السرير؟

شعرت بالاضطراب، لم أشعر أنها خافت علي أو اكترثت

لاصطدام رأسي، قلت لها بسرعة: مفيش حاجة، مفيش حاجة.

أخذت أعدل من هندامي، وهممت بالانصراف من الغرفة، فوجدت أمي تأتي منزعجة على إثر سماعها لصوت الارتطام قائلة: فيه إيه؟ إيه الصوت ده؟

فعاجلتها بسرعة، وأنا أغادر الغرفة، وأعدل من هندامي قائلاً: مفيش حاجة، مفيش حاجة.

أين سكان المدينة؟

دخل القائد المظفر إلى المدينة المهزومة ممتطيًا فرسه الثائر، شاهرًا سيفه البتار، بعد أن دك حصونها بجيشة الجرار. هذه المدينة التي استعصت عليه طوال شهور الشتاء و مات عدد كبير من جنوده حول أسوارها المنيعة وقلاعها، التي كانت تَرمى بالموت الخاطف. بسقوط هذه المدينة التي كانت آخر القلاع الحصينة لأعدائه، يكون قد وسع الإمبراطورية المترامية الأطراف، وضم إليها ما لا يحصى عدده من البلدان والقرى والأراضي الشاسعة. الخراب يعم المدينة؛ النيران في كل مكان، فرسه يكاد يتعثر من كثرة الجثث التي امتلأت بها ساحات المدينة، رائحة الدم تملأ المكان، وتبعث في نفسه سكرة

و نشوة لا يدانيها سكرة الخمر المعتق ولا نشوة معاشرة النساء، جنوده يطوفون المدينة ينهبون كل ما في طريقهم، فرقته الموسيقية تدق طبول النصر، فيرجع صداها من الحوائط المتهدمة والقصور الخربة. طلب من جنوده أن يجمعوا سكان المدينة ليتحدث إليهم، بحثوا في كل أرجاء المدينة، عاد أحد الجنود أدى إليه التحية وقال:

الجندي: سيدي القائد، لا سكان في المدينة.

القائد: ماذا؟ لا مدينة بلا سكان.

الجندي: لم نعثر على أحد.

القائد، وقد بدت عليه الدهشة: ابحثوا جيدًا ابحثوا في كل مكان. قد تجدونهم في أنفاق تحت الأرض اختبأوا فيها.

الجندي ينصرف مسرعًا، ويعود بعد فترة قائلاً: سيدي، لا سكان في المدينة.

القائد، وقد جن جنونه: سأضرب عنقك أيها الأبله، أنت تهذي.

الجندي: سيدي، لا يوجد أنفاق في المدينة،ولا يوجد أحد في المنازل المنهارة.

القائد، وقد أدارت الدهشة رأسه: إذن، اجمعوا لي الأسرى.

الجندي: سيدي القائد، لا يوجد أسرى في المدينة.

القائد وقد نزل عن فرسه: لا يوجد أسرى؟

– الجندي: سيدي، لا يوجد في المدينة سوى جثث القتلى.

القائد: أين الإمبراطور المهزوم؟ أين الأمراء؟ أين النساء؟ أين الأطفال؟

الجندي: ليس هناك سوى جثث الجنود القتلى.

القائد: فيمن سأخطب خطبة النصر؟ من سيركع أمامي ليطلب العفو والصفح؟ من سيقدم لي أثمن ما عنده ليفتدي نفسه ويفتدي أسرته؟

أخذ القائد يهرول وسط المدينة، وقادة الجيش من خلفه ينظرون إلى الجثث الملقاة؛ إنها جثث لجنود، لا يوجد جثث لأهالي المدينة، جميع الجثث ترتدي الملابس العسكرية. وصل القائد إلى أطراف المدينة والدهشة ستقتله، جلس على صخرة ليستريح. جاءه أحد جنوده مسرعًا:

الجندي: سيدي، هل من الممكن أن تأتي معي؟ لقد رأيت شيئًا عجيبًا.

قام القائد مهرولاً مع الجندي، يتبعه حراسه وقادة جيشه. أشار الجندي إلى جثة بملابس عسكرية. "سيدى، هذه جثة امرأة"! كشف القائد عن الوجه، فوجدها امرأة فعلاً.

الجندي: وهذه جثة طفل! كشف القائد عن وجهه، فوجده طفلاً يرتدي ملابس عسكرية.

صرخ القائد المظفر بأعلى صوته: اكشفوا عن وجوه كل القتلى.

أخذ الجنود يكشفون وجوه الجثث، وأخذ القائد ينظر بفزع ويصرخ: امرأة عجوز! رجل مسن! شابة حسناء! طفلة صغيرة! فارس قوي! ثم توقف القائد أمام جثة لرجل عليه علامات العز والترف. كشف عن كتفه؛ إنه الإمبراطور! عليه خاتم الملك. الجميع يرتدي الزى نفسه، الجميع حارب، الجميع قتل، الجميع رفض العبودية، واستعذب الموت. لن يركع لي أحد! لن يستعطفني أحد! لقد سلبوني نشوة النصر!

صاح أحد الجند: سيدى القائد، دعك منهم ولنحتفل بالنصر العظيم.

جثا القائد على ركبتيه محبطًا وقال: هم من انتصر وليس نحن،، فلنخرج من هذه المدينة.

عزرائيل يصل أولاً

الازدحام شديد، فموقف الأتوبيسات في السابعة صباحًا، يكتظ بالبشر، من موظفين وطلبة وعمال. كان يقف في انتظار الأتوبيس مثلنا جميعًا، كان لافتًا للنظر بقميصه ناصع البياض، و بنطلونه شديد السواد. كان يبدو في الخمسينات من عمره. فجأة، سقط أرضًا.

عيناه مفتوحتان تنظر للاشيء، واضعًا يده على صدره. كان يحاول الكلام، التف الناس حوله، تزايدت الأعداد وتعالت الأصوات. الجميع يتكلم، والجميع يصدر تعليمات، ولا أحد يفعل شيئًا. كانت عيناه تدور محدقًا فينا، يجاهد نفسه ليقول شيئًا. الأصوات العالية حالت دون سماعه، تقدم رجل مسن إليه، أخذ يضغط على صدره لمحاولة إسعافه،

لا أمل. وضع يديه على جفنيه ورفعهما ونظر جيدًا في عينيه، انتصب الرجل المسن، وقال:"لا إله إلا الله سبحان من له الدوام، البقاء لله." انزعج الناس وتعالت التكبيرات والتهليلات، صرخ أحدهم: "أنا هاتصل بالإسعاف، يمكن لسه عايش." وصرخ آخر: "أنا هاتصل بالشرطة." وبدأ كل واحد منهم يتصل من هاتفه المحمول. دخل إلى الموقف أتوبيسان في آن واحد، أحدهما الأتوبيس الذي كنت أنتظره للذهاب إلى عملي، هرول معظم من كانوا متجمهرين حول الجثة، ليركبوا إلى وجهاتهم. بقيت أنا والرجل المسن والاثنان اللذان اتصلا بالإسعاف والشرطة وبعض الصبية الصغار، حول الجثة. جاء ناظر المحطة مسرعًا، نظر بأسًى، وقال:

– الله يرحمه. كنت بشوفه كل يوم يركب من هنا. بس لو سمحتوا يا جماعة، شيلوا الجثة و إركنوها على جنب، علشان الأتوبيسات تعرف تطلع.

بجوار حائط قديم، رقدت الجثة. غطيناها بجريدة اشتراها أحدهم من بائع الجرائد، كانت هناك صورة على الصفحة الأولى لأحد شهداء الثورة، وهو ملقى على الأرض مضرجًا بدمائه، وفوقها كلمة كبيرة " القصاص." مر بعض الوقت، لم تأت سيارة الإسعاف، لم تأت الشرطة. وضعت يدي في جيوبه وأخرجت بطاقته وهاتفه المحمول، قرأت اسمه في البطاقة، وأخذت أبحث في الهاتف عن اسم يدلني

على أحد أفراد أسرته، وجدت في الهاتف رقمًا مدونًا باسم (الزوجة)، اتصلت مترددًا، رد صوت نائم، صوت امرأة صغيرة السن لا تتلائم مع سن المرحوم، وبكل الخشوع والحزن أبلغتها الخبر. أخذت في الصراخ و البكاء، وألقت الهاتف من يدها أغلقت الخط. واتصلت مرة أخرى بعد دقيقة، ردت وهي تبكي.

- قلت لها: هو موجود بموقف الأتوبيسات، ولازم حد يجي ياخده.

- قالت وهي تبكي: كلم مراته الاولانيه وعياله يروحوا ياخدوه، أنا لوحدي لا أعرف أروح ولا أجي.

اندهشت أنها زوجته الثانية، يبدو أن المرحوم كان مغامرًا. أخذت أبحث في الأسماء، وجدت اسم " أم العيال "، الصراخ والبكاء، إلقاء الهاتف، أصوات أبنائه تتعالى حولها، أخذت التليفون ابنته وهي تبكي.

- قلت لها: لازم حد ييجي ياخده من موقف الأتوبيسات.

- قالت: حاضر، هاكلم أخويا في الشغل.

في هذه الأثناء، انصرف الصبية والاثنان اللذان اتصلا بالإسعاف والشرطة، وبقيت أنا والرجل المسن والجثة المغطاة بأوراق الجرائد. الحياة في الموقف على قدم وساق، ناس تذهب وناس تجيء، والكل يلقي نظرة على الجثة وينصرف. لم تأت الشرطة ولا الإسعاف، رن

هاتف المرحوم، ظهر رقم باسم (إبني محمود)، جاءني صوته باكيًا يستفسر عما حدث، حكيت له بالتفصيل.

- قال باكيًا: أنا باشتغل في ٦ أكتوبر، وعلى ما أجي آخد وقت طويل. ممكن لو سمحتم تروحوه البيت؟

وأعطاني العنوان. وقفت مذهولاً أنا والرجل المسن، كيف سنذهب بالجثة إلى أهله؟ أبلغته بذلك، فقال ممتعضًا: "لا إله إلا الله، محدش منهم عايز ييجي ياخده؟ أنا يا إبني راجل كبير وتعبان لا أقدر أروح ولا أجي، ربنا معاك." وتركني وانصرف. مكثت أنا والجثة فقط بجوار الحائط القديم بموقف الأتوبيسات، مضى الوقت ولم أعرف ماذا أفعل، العنوان الذي أعطاني إياه ابنه ليس بقريب، وعندي عمل مهم لا أستطيع التأخر عنه. رن هاتفي، إنه مديري في العمل، جاءني صوته ساخطًا لاعنًا لأني تأخرت، وأغلق الخط في وجهي. الشرطة لم تأت، الأسعاف لم يأت، أهله لم يأتوا. نظرت إلى صورة شهيد الثورة على صفحة الجريدة المغطاة بها الجثة، وإلى كلمة القصاص الكبيرة. دخل أتوبيس جديد إلى الموقف، الأتوبيس الذي كنت أنتظره. وضعت الهاتف المحمول والبطاقة مرة أخرى في جيب المرحوم، وانصرفت لأركب إلى عملي. ألقيت عليه نظرة من النافذة والأتوبيس يغادر. لا أحد حوله إلا قطة صغيرة قبعت باتجاهه، وهو ممدد بجوار الحائط القديم.

نصيحة عم عوض

تحت شمس الصباح الشتوية الدافئة، جلس يتناول إفطاره في حديقة دار المسنين الواسعة، وضعت له العاملة كوب الشاي الساخن بجوار الإفطار، الذي لا يزيد عن قطعة جبن لا طعم لها، وعلبة زبادي. نظر إلى إفطاره، ابتسم بمرارة؛ أمواله المكتظة في البنوك، لا تستطيع أن تجعله يأكل ما يشتهي. أعوامه الثمانون، تجثو كالجبل فوق كتفيه، تحني ظهره، وتذيب مفاصله. عكازه لا يفارقه.

نظر حوله، فوجد الشعر الأبيض والعيون الذابلة والظهور المنحنية، تجلس على المقاعد لتأكل تقريبًا الشيء نفسه؛ الأدوية بجوار الطعام. نظر إليها بأسى، بدأ يحدث نفسه: "هل هذه هي نهايتي؟ أعوامٌ طويلة

من العمل الشاق المتواصل، سلسلة من النجاحات المتوالية، مجموعة شركات كبرى تحمل اسمي، أبناء وبنات مشغولون الآن بإدارة هذه الشركات وجني الأرباح، وزوجة واراها الثرى منذ ثلاثين عامًا؟!"

تذكر المرأة التي أحبها بعد وفاة زوجته ولم يتزوجها،، الكثيرات من الجميلات وسيدات المجتمع كن يتمنين الارتباط به، عاش لاطفاله، تحمل الوحدة من أجلهم، لم يتحملوا كبر سنه، ألقوا به في هذا المكان: سجن فخم خمسة نجوم يسمونه دار مسنين. تذكر عم عوض "عامل البوفيه" الذى عمل معه طوال سنوات عمره، عندما نصحه مخلصًا ذات مرة قائلاً: يا باشا، ما تحرمش نفسك من حاجة. إتجوز وعيش حياتك، عيالك بكره يسيبوك ومش هتلاقى حد جنبك.

ضحك وقتها من كل قلبه. عم عوض الآن يعيش في بيته مع زوجته وأولاده.

حجبت سحابة قاتمة ضوء الشمس الضعيفة ودفئها الهزيل، فسرت برودة في جسده، ولف ملابسه الثقيلة حوله. التفت يتفرس وجوه النزلاء، كل منهم له حكاية مؤلمة ألقت به في هذا المكان. التقت عيناه الضعيفتان بعينين ذابلتين لسيدة مسنة تجلس قريباً منه، شعر بشيء ما، دفءٌ سرى في جسده، وانقشعت السحابة، فعاد الضوء مرة أخرى.

ابتسم لها فبادلته الابتسامة، اتكأ على عكازه وذهب ليشاركها منضدتها.

بعد شهر، بعث برسالة قصيرة إلى جوال ابنه الأكبر تقول: (لقد تركت الدار! لا تبحثوا عني. أنا أقضي أجمل أيام عمري مع زوجتي، عندما يحين الوقت سأخبركم بمكاني. أتمنى لكم حياة سعيدة).

فتاة الحي الراقي

رائحة عطرها الأخاذ، ملأت الشارع الراقي في حي المهندسين الذي لا يقطنه سوى علية القوم. اختارت هذا الشارع بعناية ليكون الصيد ثمينًا. أنوثتها الصارخة أدارت رؤوس الجميع، اختارت ملابسها بطريقة تظهر مواقع الجمال في جسدها. بدأت تسير بدلال و تتثنى في مشيتها، كغصن طري تتلاعب به النسمات الرقيقة. انطلقت التعليقات من أصحاب المحلات والمارة، هدأت السيارات من سرعتها ليتمتع أصحابها بمشاهدة هذه الأنوثة المتحركة، ازدحم الشارع وبدأت السيارات في إطلاق أبواقها، ما بين معجب يعاكسها بنغمات معروفة من بوق سيارته، وبين حانق يسبها ببوقه الطويل المستمر.

بعض السيارات، تنحت جانبًا وأخذ أصحابها يلقون على مسامعها عبارات الإعجاب والغزل، أو عبارات الدعوة للمتعة. رمقت الجميع بنظرات فاحصة، ووجه متجهم، إلى أن سمعت صوت فرامل قوية لسيارة مرسيدس فاخرة وقفت بمحاذاتها تمامًا، نزل الزجاج الأسود وسمعت صوتًا يقول لها: اركبي.

صاحب السيارة الفاخرة، يشبه سيارته تمامًا؛ فهو فاخر المظهر أيضًا، وفي الخمسينيات من عمره، ضخم، يرتدي ربطة عنق أنيقة، وبدلة سوداء. فتحت باب السيارة وركبت، وقبل أن تجلس على الكرسي قالت: ٥٠٠ جنيه.

هز رأسه موافقًا، وانطلقت السيارة.

في الفيلا الفاخرة، وقبل أي شيء، طلبت منه أن تعد بنفسها كوبين من الشاي، لأنها تشعر بصداع. أرشدها إلى طريق المطبخ، وذهب إلى الغرفة لينتظرها. عادت تحمل صينية الشاي، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة. مد يده ليجذبها إليه، فطلبت منه بدلال أن يشرب معها الشاي أولاً.

ما إن انتهى من كوب الشاي، حتى شعر بدوار وألم في بطنه. قام بصعوبة وتوجه إلى الحمام، سقط في الردهة، ليحدث سقوطه جلبة كبيرة. نظرت إليه بترقب، انتظرت قليلاً، وضعت أذنها على قلبه،

أطلقت ضحكة عالية، ركلت الجثة بقدمها، وانصرفت على عجل.

العثور على جثة رجل أعمال في الخمسينات من عمره بفيلته في المهندسين، وتشير التقارير الأولية إلى أنه مات مسمومًا. (خبر بصفحة الحوادث، بجريدة الأهرام.)

وفي الأسبوع التالي، كررت الشيء نفسه، في منطقة أخرى، وتكررت جرائمها.

جثة شاب مات مسمومًا، في الثلاثين من عمره، بشقته في مدينة نصر (خبر آخر.)

جثة ثري عربي بشقة في شارع الهرم. جثة طالب جامعي في مصر الجديدة.

توالت الأخبار، وانشغل المجتمع. أما برامج "التوك شو"، فقد وجدت مادة خصبة للثرثرة.

توقفت سيارة فاخرة، بمحاذاة كتلة الأنوثة المتحركة، شاب وسيم، ذو نظرة ساحرة. ابتسمت له، وفتحت الباب وركبت.

هي: شقتك فين يا جميل؟

هو: في الشروق.

هي: طيب بسرعة شوية علشان أنا مستعجله.

هو: بس انا مش مستعجل.

هى: ليه بقى ما اعجبش ولا ايه؟؟

هو: أبدًا إنتى تعجبى الباشا

هي: طيب إيه المشكلة بقى؟

هو: أنا مش عايزك علشان كده أنا عايز حد أفضفض معاه.

هي بضحكة ساخرة: تفضفض؟؟ حد قالك عليا أسامة منير؟

هو حزينا: أنا مش لاقي حد يفهمني أنا نفسي في قلب يحبني مش جسد يشدني.

هي: إنت بتدور على الحب؟ ده عملة نادرة دلوقتي، مفيش حب فى الزمن ده. كله بيدور على مصلحته. أنا ركبت معاك علشان الفلوس، وانت ركبتني علشان تتمتع بجسمي الجميل.

هو: لا أنا ركبتك علشان أتكلم معاكي.

نظر في عينيها، شعرت بأن الأمر مختلف. لأول مرة هناك رجل لا يطمع في جسدها، يبحث عن قلبها، ذكرها بحبها الأول القديم، منذ أن كانت فتاة غضة صغيرة.

صعدا إلى الشقة، دخلت المطبخ لإعداد كوبين من الشاي، عادت إليه فلم تجده بالملابس الداخلية كالباقين! إنه جالس على كرسي

في الصالة، ينظر إليها نظرات تحمل معانٍ أخرى. لم تعتد على هذه النظرات، سرى شعاع خفي من عينيه إلى قلبها المغلق، وطرق عليه طرقة خفيفة، فانفتحت فيه ثغرة نفذ منها إلى الداخل. جلست بجانبه، وناولته كوب الشاي ويدها ترتعش، ترددت كثيرًا قبل أن تناوله الكوب. أمسك به، رفعه إلى شفتيه وهو ينظر إليها بتمعن، وما إن لامس الكوب شفتيه، حتى صرخت بأعلى صوتها: "لأ ما تشربش!" وأطاحت بالكوب بكل قوة من بين يديه، وارتمت على صدره، وانهمرت في بكاء شديد.

خرج من الغرفة الداخلية، ثلاثة رجال يرتدون ملابس الشرطة. أمسكوا بها وقام هو واقفًا، تجمدت ملامحها، وتحجرت الدموع في عينيها. أدى أحد أمناء الشرطة التحية العسكرية له، قائلاً: "تمام يا فندم! حمد الله على سلامة سيادتك."

هو: الحمد لله، مسكناها. خدوها على البوكس.

وأثناء التحقيقات إنهمرت فى البكاء و قالت له:

أنا مش مجرمة كله كان عايز جسمي كله كان بيغتصبني محدش رحمني. اللي حبيته من كل قلبي وأنا صغيرة، ضحك عليا وسابني حامل. هربت وما لقيتش غير الشارع. كله كان بيتمتع بيا ويرميني. محدش جاب لي حقي، كان لازم انتقم من كل الرجالة كان لازم آخد حقي.

شعر بشيء ما فى نبراتها،، لا يعرف لماذا دخلت هذه الكلمات إلى قلبه مباشرة،، لقد سمع الكثير والكثير من فتيات مثلها خلال سنوات عمله،، ولكن هذه الفتاة لماذا أحس بصدقها؟

في اليوم التالي، كان يقف أمام رئيسه ليقدم استقالته، ثم بدأ بعد ذلك في إعداد مذكرة الدفاع عنها كمحامٍ لها.

ساحات الغضب

وقف عسكري الأمن المركزي الملتحق حديثًا بالخدمة، مشدوهًا أمام الجموع الغفيرة المحتشدة في الميدان الواسع. الشمس حارقة والعرق يتصبب من جبينه، والخوذة التي يحملها فوق رأسه مثل الجبل الأصم. البندقية التي يحملها، خاوية من الرصاص. رأسه تدور بالأفكار: "ما الذي جاء بي إلى هنا؟ لماذا كل هؤلاء غاضبون؟" إنه لا يعرف! "ربما لأني لم أنل أي قسط من التعليم؟ ربما لأني لا أستطيع أن أقرأ؟ فأنا لا أفهم شيئًا مما يحدث. أعرف أنها ثورة، ولكن لماذا يصبون جام غضبهم علي أنا؟"

اتجه نحوه المئات من الشباب الثائر، أخذوا يتحدثون إليه بغضب،

إنه لا يفهم ما يقولون. بدأوا يسبونه، تمسك بيد زملائه في صف طويل ليمنعوا هؤلاء الشباب من المرور، تذكر الحقل والفأس وأباه المريض الذي ينتظره بفارغ الصبر، ليعود إلى بلدته في أجازة قصيرة من العسكرية ليحصد الزرع. دفعه أحد الشباب دفعة قوية كادت تسقطه على الأرض، استند إلى زميله، حاول أن يسأله: "لماذا تدفعني؟" لم يسمع أحد صوته، حاول أن يقول شيئًا فلم يستطع. القائد يصرخ فيهم: " اثبتوا، ممنوع مرور أي أحد من هنا." ارتعد من صوت القائد، تسمرت قدماه في الأرض ازداد الغضب، وازدادت الحشود. لم يعد يستطيع أن يمسك بيد زميله، شعر بحجر يصيبه في رأسه، سقط على الأرض، اجتاحته الحشود. لم يعد يرى شيئًا إلا الأقدام التي تتخطاه. نادى بأعلى صوته، لم يسمعه أحد. وبعد قليل، أصبح اسمًا في قوائم الشهداء.

إيييييه دنيا!!!!

أمواج البحر الهادئة التي تضرب رمال الشاطىء فتصل إلى قدمي، وأنا جالس على كرسي من القماش تحت مظلة كبيرة، تثير أشجاني. لا أعرف لماذا استدعت ذاكرتي هذا الرجل من متاهات العقل الباطن، وجاءت بصورته القديمة لتتراءى أمام عيني. لم أره سوى مرة واحدة، كنت قد نسيته تمامًا. عادت بي الذاكرة إلى مرحلة الطفولة، سنوات طوال تتجاوز الخمسين، في الإجازة كنا نسافر إلى بيت جدي، كان قصرًا قديمًا على شاطىء البحر بمدينة ساحلية رائعة، يتلقانا الجد بفرحة عارمة؛ فنحن نطرد وحدته ونعيده طفلاً صغيرًا يلهو معنا ويجري في الحديقة الشاسعة خلفنا، ضاربًا بعرض الحائط تنبيهات الأطباء بلزوم الراحة، متناسيًا آلام

العظام والمفاصل، متجاهلاً سبعين عامًا يحملها فوق كتفيه.

نلتقي بأبناء عمومتنا لنملأ القصر فرحة وبهجة، غرف القصر كثيرة نخطىء دائمًا كأطفال في عدها، سلالم طويلة وأعمدة رخامية، قصر يدل على أن صاحبه كان أحد باشاوات العهد الملكي، لكن ثورة ٥٢ لم تترك لجدي سوى هذا القصر يعيش فيه، وبعض الأفدنة التي سمحت له قوانين الإصلاح الزراعي الاحتفاظ بها.

كنا نلهو في القصر فنلعب (الاستغماية)، عندما جاء دوري في الاختباء ليبحث عني باقي الأطفال جريت لأختبئ خلف القصر حيث مجموعة الغرف الملحقة بالقصر، استحسنت مكانًا خفيًا واختبأت فيه وانتظرت، بدأ الأطفال يبحثون عني وأنا سعيد بحيرتهم وعدم معرفتهم بمكاني، وفجأة سمعت صوتًا مبحوحًا يائسًا يصدر من داخل إحدى هذه الغرف يقول: (ايييييه دنيا!!!!!!!)، لم أكن أرى صاحب الصوت، انتابني فزع شديد وأطلقت ساقي للريح وأنا أصرخ: "عفريت عفريت."

بدأ الاطفال يجرون معي وهم فزعون مثلي، تلقانا جدي بدهشة: ماذا حدث يا أولاد؟

أنا: عفريت يا جدي، عفريت في الأوضة اللي ورا القصر.

ابتسم جدي: مفيش عفريت ولا حاجة، ما عفريت إلا بني آدم.

أنا: سمعته، أنا متأكد. سمعته بيقول (إيييه دنيااااا).

ازدادت ابتسامة جدي وقال: ما تلعبوش عند الأوض اللي ورا دي تاني، العبوا هنا في الجنينة.

بدأنا في اللعب مرة أخرى، وبدأت أنا أنشغل بهذا الصوت. خيال الطفولة بدأ يصور لي صورة صاحب هذا الصوت، تخيلته كائنًا ضخمًا بشع الصورة، وتخيلته جنيًا له قرنان كبيران وذيل طويل، وازداد خوفي عندما لاحت أمامي صورة دراكولا مصاص الدماء.

بدأت أبتعد عن اللعب مع الأطفال ودفعني فضولي إلى مراقبة الغرف الخلفية للقصر، تسللت واختبأت تحت السلم الخلفي وانتظرت، كنت أسمع نفس الكلمة تصدر من إحدى الغرف، حددت مكانها بدقة من خلال الصوت الصادر القائل: إيييه دنيااا.

فجأة سمعت صوت أقدام تنزل من على السلم الذي أختبىء تحته، بدأ قلبي يرتجف خوفًا، وشعرت بأطرافي وكأنما يسير عليها جيش من النمل، كتمت أنفاسي خوفًا من أن يسمع هذا القادم صوت أنفاسي المتلاحقة، وصل صوت الأقدام إلى نهاية السلم وبدأ يسير على الممر الرخامي الموصل للغرف الخلفية، مددت بصري بحذر لأرى فإذا به جدي يحمل صينية طعام ويتجه بها نحو إحدى الغرف. طرق جدي الباب

فانفتح ببطء جزء منه لا يسمح إلا بمرور جدي فقط، وانغلق بسرعة لم أر من في الداخل، ولكن تبدد الخوف فجدي لن يقدم الطعام لدراكولا.

في المساء وبعد أن نام الجميع، تسللت الى غرفة جدي.

جدي: إنت لسه صاحي؟

أنا: مش جاي لي نوم.

جدي: ليه؟

أنا: مين اللي حضرتك بتودي له أكل في الغرفة اللي ورا القصر؟

امتقع لون جدي وشعرت بأنه وقع في مأزق، قام من سريره وأجلسني على كرسي بجانب السرير، وجلس على كرسي مقابل له، ارتسمت على وجهه علامات الجدية، واقترب بوجهه مني وقال بصوت خفيض: إنت راجل ولا عيل؟

أنا: راجل طبعا يا جدي، طالع لحضرتك.

ابتسم وقال: طالما إنت شوفتني يبقى هاقول لك على سر محدش يعرفه، بس إحلف لي إنك مش هاتقول لأي حد.

قلت، وقد بدأت أشعر بأني أصبحت رجلاً مهمًا جديرًا بأن يحمل الأسرار: والله ما هاقول حاجة.

رجع جدي إلى الخلف، وأسند ظهره ونظر ببصره إلى أعلى

كما لو كان يرقب سحابة تحركها الريح ببطء في السماء، وبدت عليه علامات الشرود وقال: من كام سنه قامت ثورة يوليو ٥٢.

أنا: أيوه عارفها طبعًا، أخدناها في المدرسة.

جدي: الثورة دي أخدت الأراضي والممتلكات من البشوات والبكوات وأنا منهم، ولولا شوية الأرض إللي سابوهم لنا ما كنتش عارف هانعيش منين.

سحب بصره عن متابعة السحابة التي تخيلت أنها تسير في سقف الحجرة، ونظر إلى الأرض وكأنما يتابع سرب نمل صغير يسير في طابور بانتظام، واستطرد قائلاً: شوكت باشا كان أحد أتباع الملك وكان له ممتلكات وأراضٍ كثيرة لا حصر لها، تم تأميمها بالكامل وتركوا له القليل. سافر ابنه ومعه جميع أفراد الأسرة لإنجلترا، ليبدأ حياة جديدة هناك. تعثر الابن في عمله وكاد يسجن. باع شوكت باشا ما تبقى لديه حتى القصر الذي كان يسكن فيه، ليسدد ديون ابنه في الخارج، وذهب ليسكن في شقة صغيرة مكونة من غرفة واحدة. اعتزل الناس ولم يعد يزروه أحد، ولم يعد يجد قوت يومه. كان من أصدقائي، وقد تعثرت في فترة من فترات حياتي، ووقف بجانبي حتى وقفت على قدمي مرة أخرى، وأنا أرد إليه الجميل. جئت به ليعيش هنا، وكان طلبه الوحيد ليأتي معي ألا يرى أحدًا وألا يراه أحد. وهو لا يقول سوى هاتين

الكلمتين (إيييه دنيا!!!).

ارتجف صوت جدي واغرورقت عيناه، وهو يقول هذه الكلمة. فلم أعرف أحزنه هذا على صديقه أم على نفسه؟!

طلبت من جدي أن أرى شوكت باشا، فوعدني بذلك في اليوم التالي. وأثناء إدخال جدي الإفطار له، ترك الباب مفتوحًا وقد أوقفني في مكان أرى منه جيدًا مَن في داخل الغرفة دون أن يراني، رأيت رجلاً ضخمًا بدينًا شديد بياض الوجه، يجلس على كرسي، شكله يوحي بأنه ينحدر من أصول تركية. وضع جدي الطعام على منضدة أمامه وانصرف، وما إن خرج جدي حتى سمعت صوت شوكت باشا من داخل الغرفة يقول: إيييه دنيا!!!.

انتهت الإجازة وسافرنا إلى القاهرة، وكانت الكلمة ترن في أذني دائمًا. وفي الإجازة التالية ذهبنا إلى قصر جدي وذهبت لأنظر خلف القصر إلا أنني وجدت باب الغرفة مفتوحًا ولا أحد فيه، سألت جدي فأخبرني أن شوكت باشا قد لقي ربه ثم تنهد جدي وقال: إيييه دنيا!!!.

سنوات طويلة مرت، ولم أنس هذا الرجل ولا عبارته المشهورة، ووجدتني لا شعوريًا وأنا جالس أمام البحر والقصر من خلفي، أتنهد وأقول بصوت مسموع: إيييه دنيا!!!.

الورقة الصغيرة

اعتدت أن أركب الأتوبيس المتجه إلى الجامعة من موقف الأتوبيسات المجاور لنا. أنزل من بيتي في الميعاد نفسه كل يوم الساعة السابعة صباحًا، تستطيع أن تضبط ساعتك على ميعاد نزولي؛ فأنا بطبعي شخص منظم رتيب، حياتي كلها منظمة وأفعل كل شيء في الميعاد نفسه. وبما أن هذا لا يتناسب مع شاب مثلي في عامه الثاني في الجامعة، فقد كان ذلك كافيًا كي لا يكون لي الكثير من الأصدقاء، وقد اعتدت على ذلك، فأكتفي دائمًا بصديق واحد، أتحمل انتقاداته الدائمة لهذا الروتين الذي أحبس نفسي داخله، كمن وضع نفسه مختارًا في قفص حديدي كبير، وأوصد بابه وألقى بالمفتاح خارجًا من بين قضبانه. كانت الانتقادات تنهال علي كالأمطار التي تنزل في فصل الربيع، غير متوقعة ودائمًا ما تكون متسخة بالأتربة، أقف

تحتها بدون مظلة، مبتسمًا على مضض موقنًا بأنها لن تلبث أن تنتهي، فأمطار فصل الربيع زخات خفيفة أتحملها كي لا أخسر أحدًا فأصبح وحيدًا، فأنا ليس لي إخوة أو أخوات وأعيش مع أبي وأمي في بيت كبير بالنسبة لثلاثة أشخاص. وأسرتنا الصغيرة هذه لا تجلس مع بعضها إلا في النزر اليسير، نجلس جلوس الغرباء كالمسافرين في القطار ينظرون في ساعاتهم كل برهة في انتظار الوصول للمحطة التي سينزلون فيها، ونتحدث كأحاديثهم؛ أحاديث قصيرة وكلمات مقتضبة. لا أعرف لماذا ولكني نشأت على هذا وتعودت عليه، فأصبحت قليل الكلام حتى مع صديقي الوحيد، الذي يتغير باستمرار بتغير المرحلة الدراسية، دائمًا صديق واحد لكل مرحلة؛ فبمجرد انتهاء المرحلة يبدأ في التسلل البطيء من هذه الصداقة كالإناء الكبير الذي أصابه ثقب صغير في أسفله، فينزل الماء منه نقطة نقطة إلى أن يجف الإناء، وما هي إلا شهور قليلة حتى تنتهي الصداقة، وأكد وأجتهد في البحث عن صديق جديد للمرحلة الجديدة، وهكذا...

اليوم نزلت كالعادة في ميعادي صباحًا، وتوجهت إلى موقف الأتوبيسات. كان الأتوبيس الذي سأستقله رابضًا مكانه، كالمعتاد. إنه لا يغير مواعيده، مثلي تمامًا. صعدت إليه وجلست في الصف الأمامي على الكرسي الفردي خلف السائق مباشرة، لفت انتباهي أنه في الصف المقابل لي وعلى الكرسي المزدوج، تجلس فتاتان ترتديان ملابس

مدرسية وتدل بنيتهما الجسدية وملامحهما على أنهما في المرحلة الثانوية، وفي الأغلب في نهايتها. الفتاة التي تجلس مقابلي بجانب الطرقة التقت عيني بعينها وأنا أصعد درجات السلم القليلة، أخذني جمالها حتى إني كدت أتعثر أثناء الصعود بعد أن جلست. التفت إليها، كانت أشعة شمس الخريف الدافئة تمر برفق على وجهها فتشرق وجنتاها بحمرة الدفء، وتلمع عيناها ببريق أخاذ. فتاة في غاية الحسن، بشرتها الخمرية، وشعرها الأسود الناعم المربوط إلى الخلف بهيئة ذيل الحصان، وقسماتها المتناسقة كأنها سيمفونية عذبة على شاطىء نهر جار. شعرت بنظراتي فالتفتت إلي، فرأيت وجهها مستديرًا كالقمر، وعينيها سوداوين كحيلتين. تلاقت عيني بعينها للمرة الثانية، ارتبكت وأدارت وجهها بسرعة نحو زميلتها التي تجلس بجوار الشباك، أما أنا فقد كان ارتباكي أشد إلا أنني لم أرفع عيني عنها. لبثت أحدق فيها، لم تنظر إليّ مرة ثانية، وشغلت نفسها بالحديث مع زميلتها. لم تكن زميلتها بنفس القدر من الجمال، كانت تفتقر إلى الكثير منه. تحرك الأتوبيس في الساعة السابعة والنصف كالعادة، وما لبثْ بعد ثلاث محطات أن قامت هي وزميلتها ونزلتا أمام مدرسة البنات، وواصل الأتوبيس سيره.

كانت أول مرة أراها، ولم أستطع أن أحجب نفسي عن التفكير فيها طوال اليوم، إنها بداية العام الدراسي وربما تكون قد انتقلت إلى هذه

المدرسة حديثًا، لذا لم أرها من قبل "حدثت نفسي" لم أكن أعرف إن كنت سأراها غدًا أم لا، ظل التفكير فيها يسيطر على عقلي حتى بعد أن رجعت إلى المنزل، وأثناء المذاكرة، وعندما أويت إلى فراشي.

كعادتي، وفي اليوم التالي وفي السابعة تمامًا، كنت متجهًا إلى موقف الأتوبيس، و كالعادة أيضًا وجدته رابضًا في مكانه. صعدت درجات السلم والتقت نظراتنا مرة أخرى، لم أتعثر مثل الأمس وإنما شعرت بخفقان قلبي وسخونة في وجهي وخشيت أن يكون قد أحمر لونه، فاندفعت بسرعة إلى الكرسي الفردي خلف السائق كالمعتاد، ولم أستطع التحكم بأنفاسي المتسارعة، كما أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليها. بعد برهة وجدتها تختلس نظرة أخرى تجاهي والتقت عيوننا، فارتبكت وأدارت وجهها تجاه زميلتها، مالت عليها وهمست لها بشيء، فوجدت زميلتها تنظر إلي هي الأخرى نظرة مستكشفة، مما جعلني أعتقد أنها قد حدثتها عني بالأمس، وسرعان ما جاءت محطتهما ونزلتا من الأتوبيس إلى مدرسة البنات. ازداد تفكيري في الأمر، فأنا ولأول مرة أشعر باهتمام فتاة بي أو اختلاسها النظر إلي- مع أني في العام الثاني بالجامعة- إلا أنه لم يحدث مطلقًا أن تعرفت على فتاة، أو اهتمت بي فتاة. شخص مثلي هذه طباعه، لا تنجذب إليه الفتيات؛ فأنا قصير القامة، هزيل الجسد، وشعري أسود خشن، وأرتدي نظارة طبية

كبيرة، كما أنني بطيء الحركة، كلاسيكي المظهر، أبدو أكبر من سني.

في الليالي السابقة، كنت معتادًا أن آوي إلى الفراش في الحادية عشر مساءً، وأن أستغرق في النوم بعد دقائق. إلا أنني في هذه الليلة لم أستغرق في النوم سريعًا، ولأول مرة أرى عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل.

وتوالت الأيام، وفي كل يوم يزداد تعلقي بها وتطول فترة التقاء أعيننا، وكنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر حتى أراها. ظل هذا الوضع أسابيع عديدة، لا أستطيع أن أقترب منها أكثر من ذلك، ولا حتى أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، ومما زاد من وجلي وترددي، نظرات زميلتها لي؛ فهي دائمًا ما ترمقني بنظرة حادة جافة، حتى إني كنت أخشى أن توجه لي كلامًا جارحًا. كما لاحظت خلال هذه الفترة، أنها أصبحت حادة مع فتاتي، تتحدث إليها بصوت مرتفع وتنتقدها أيضًا كثيرًا بصوت مرتفع، يصل جيدًا إلى مسامعي. ويبدو أن غيرة ما قد تسللت إلى قلبها، وأثار هذا ضحكي من نفسي، وسخريتي منها في داخلي، يا ترى هل أنا شخص من النوعية التي تثير حسد فتاة من زميلتها لاهتمامه بها؟؟ وابتسمت لمجرد الفكرة.

كنت كل ليلة في الفراش، أنسج لنفسي عالمًا خاصًا. اعترفت لنفسي بحبها، حلمت بأني أسير معها ويدي في يدها على شاطىء النهر، كلمتها كثيرًا جدًا وسمعت منها كثيرًا أيضًا، في أحلام يقظتي. ففي أحلام اليقظة كل شيء ممكن، وكل شيء مباح، وكنت أفكر فيها وأحلم

بها حتى يغالبني النوم رغمًا عني. والغريب، أنني في كل مرة، وقبل أن يهزمني النوم، أرى زميلتها بنظراتها الحانقة الغاضبة التي كانت تزداد كل يوم، ويحتدّ معها صوتها المرتفع حين تفتعل الخلاف مع فتاتي.

وفي صباح أحد الأيام، ابتسمت لي ابتسامة خفيفة وهي تستعد للنزول من الأتوبيس، غالبًا لتشجعني كي أخطو خطوة جديدة، ولم أصدق نفسي. وعندما أتى المساء، وجاء وقت لقائي بها في أحلام يقظتي، شكرتها كثيرًا على هذه الابتسامة، وأهديتها وردة جميلة. لم يستطع النوم في هذه الليلة أن يهزمني، فقد صممت على أن أتخذ خطوة جديدة، وفكرت حتى أجهد عقلي، فأنا لن أستطيع أن أصارحها بحبي مشافهة أو وجهًا لوجه. أعرف أني سأتلعثم ولن أستطيع الحديث، وإن تحدثت فقد لا أحسن التعبير، وأخطىء في كلمة ما أو عبارة ما، وأفقدها إلى الأبد. وفجأة قفزت إلى عقلي فكرة رائعة، سأكتب لها خطابًا! نعم، سأضع كل مشاعري في ورقة، وأعطيها لها لتقرأها. سأعطيها الورقة وأنزل من الأتوبيس فورًا في أول محطة قبل أن تنزل هي، حتى لا أكون أمامها وهي تقرأ ما كتبت، فلقد خشيت رد فعلها. وسأعرف في اليوم التالي رأيها. من المؤكد أنها ستكتب لي خطابًا أيضًا، تبوح لي فيه عن مشاعرها تجاهي. استحسنت الفكرة، وقفزت من فراشي، وأحضرت الورقة والقلم، وحاولت الكتابة. ولكن لم أستطع كتابة شيء سوى كلمة واحدة، كتبتها بخط كبير. كنت كمن يسبح

في بحر هائج وهو لا يجيد العوم.

في صباح اليوم التالي وفي تمام الساعة السابعة، كنت أتجه إلى موقف الأتوبيسات، وقد اعتنيت بمظهري أكثر من ذي قبل، ووضعت بعضًا من العطر حتى يداعب أنفها حين أقترب منها لأعطيها الورقة. صعدت درجات سلم الأتوبيس، كانت تجلس في الكرسي الأمامي في مكانها المعتاد، وزميلتها الحانقة بجوارها، واتجهت إلى مكاني المعتاد.

قبل نزولها بمحطة، وقبل توقف الأتوبيس مباشرة، سأعطيها الورقة في الخفاء، وأنزل مسرعًا لحظة توقف الأوتوبيس، وهي ستنزل في المحطة التالية. لن أنزل معها في المحطة نفسها، أخشى ردة فعلها، مع أني موقن بحبها لي إلا أن رهبة ما أخذتني.

بعد قليل، قمت من مكاني، اقتربت منها، اقتربت أكثر من اللازم، كانت تنظر إلي مندهشة، شعرت أن ضربات قلبها قد ازدادت، في حين كنت أسمع صوت ضربات قلبي. مددت يدي إليها بالورقة وأنا على سلم الأتوبيس وأستعد للنزول، ارتبكت هي لكنها التقطت الورقة. نزلت مسرعًا وكدت أتعثر، أثناء نزولي نظرت إليها من أسفل وأنا في الشارع، ابتسمت لي ابتسامة يغلبها الحياء، ابتسامتها ساحرة. وفي لحظة خاطفة، فوجئت بزميلتها الحانقة تختطف الورقة من يدها وتفتحها بسرعة، ومن المؤكد أن عينيها قد وقعت على الكلمة، وفي

لحظة قامت بتمزيق الخطاب، وكان الأتوبيس قد بدأ في التحرك. مزقته قطعًا صغيرة، وألقت به من الشباك الذي بجوارها حيث أقف على الأرض. ومع تحرك الأتوبيس، تطايرت قصاصات الورق في الهواء وكانت تنزل فوق رأسي كحجارة من سجيل. انطلق الأتوبيس، وتسمرت في مكاني، لم أحرك ساكنًا، ولم أعرف ماذا حدث بينهما، لا أعرف كم من الوقت ظللت هكذا واقفًا.

عدت إلى البيت، كاد الإحباط والألم يقتلني، شعرت برغبة قوية في البكاء، أغلقت على نفسي باب حجرتي، تعللت بالمرض، لأبرر عودتي المبكرة، بكيت كطفل صغير. لقد هدمت هذه الفتاة الحانقة كل شيء.

لم أخرج من البيت لمدة أسبوع كامل، لم أكن أريد أن أرى أحدًا، ولم أكن أستطيع أن أتوقع ماذا حدث بعد ذلك، آثرت عدم لقائها لفترة ما.

في بداية الأسبوع التالي، نزلت كعادتي في السابعة صباحًا، ولحقت بالأتوبيس. صعدت السلم ولكني لم أجدها، ولم أجد زميلتها. لا أدري ماذا حدث، ولم لا تستقل هذا الأتوبيس، لا هي ولا زميلتها. لم تأت إلى موقف الأتوبيس ثانية، لقد غيرت مسارها واتجاهها، لم أرها منذ ما حدث. مرت سنوات عديدة، وما زلت آوي إلى فراشي، وأنسج عالمي الخاص وأقابلها في أحلام يقظتي.

الذهب المطفي

سحب الكرسي لها لتجلس، تجنب الجلوس على الكرسي المقابل حتى لا تلتقي عيونهما. جاء الجرسون بقائمة الطلبات، طلب منها أن تختار عشاءً فاخرًا، "لا تنظري لخانة الأسعار اختاري ما تشائين." هكذا قال. نظرت إليه بتعجب، أول مرة لا يكترث بما سيدفعه.

انتظرا العشاء في صمت، التجهم والحذر سيدا الموقف. ارتدّ بصره من شاشة التلفاز الضخمة ونظر نحوها، انعكاس أضواء الباخرة النيلية على صفحة الماء أعجبها، فلم تلحظ نظراته.

عاد ليشاهد التلفاز مرة أخرى إلى أن جاء العشاء، وانهمكا في الطعام. لم يكن يريد أي منهما التحدث، كل منهما يدور في خاطره

الكثير، ولكنهما يعلمان جيدًا أن هذه اللحظة في هذا المكان الفخم، هي لحظة الانفجار أو على الأقل لحظة الحساب.

قررت هي أن تبدأ الكلام، فصدرها يكاد ينفجر ضيقًا بما فيه. شربت قليلاً من العصير أثناء الطعام، ثم نظرت إليه قائلة: قلت لي عايزني في موضوع مهم وما ينفعش نتكلم فيه فى البيت!

توقف عن الأكل، وأنزل الشوكة إلى حافة الطبق ورفع بصره إليها، وقال:

- أيوه فعلا.

- خير أكيد موضوع مهم أوي طالما عايز تكلمني فيه وإنت بتعزمني على العشا بره البيت. إنت عارف أخر مرة عزمتني فيها على العشا إمتى؟

- أعتقد من فترة طويلة.

- تحديدا في عيد جوازنا الخامس عشر، وأنت صممت ما ناخدش الأولاد معانا.

- وإنتي صممتي ناخدهم.

- أيوه ما كانش ينفع أسيبهم في البيت ونتفسح إحنا.

- وأخدناهم معانا، واتخانقوا سوا، وباظت العزومة.

- الكلام ده كان من عشر سنين، الأولاد كبروا دلوقتي. خالد بعد

ما اتخرج بيشتغل ووضعه بقى كويس أوي، ورانيا خلصت جامعة السنة دي.

- علشان كدة كان لازم نيجي هنا ونتكلم.

- إتكلم عايز تقول إيه؟

شرب بعضًا من العصير الطازج، ووجد صعوبة في بلعه:

- إنتي افتكرتي آخر مرة عزمتك فيها، بس يا ترى افتكرتي آخر مرة اتكلمنا فيها مع بعض؟

- إحنا بنتكلم كل يوم.

- لا، قصدي اتكلمنا كلام حب كلام غزل كلام حميمي.

- يااااه! إنت لسه فاكر تسألني السؤال ده دلوقتي؟

ظهرت علامات الدهشة في عينيه، وقال:

- إنتي كنتي متوقعة السؤال ده؟

ابتسمت بسخرية وقالت:

- من زماااان!!

نظر إليها بتحدٍ يشوبه الحذر، وقال:

- من زمان من إمتى؟

- من أيام ما كنت في الشركة القديمة، من ساعة رحلة الشركة للأقصر وأسوان.

علت وجهة علامات الدهشة والاضطراب، شرب بعضًا من الماء ببطء شديد، ثم أشعل سيجارة:

- قصدك إيه مش فاهم؟؟

هي، بتحدٍ أكبر:

- لا إنت فاهم كويس أوي قصدي إيه.

شعر بالصدمة، وانفرط عقد أفكاره الذي طالما رتبه وأعده لهذه اللحظة، حاول التظاهر بالهدوء، وقال:

- قصدك إني كنت مشغول عنك بالسفر؟؟؟

ضحكت بسخرية، وقالت:

- السفر؟ ولا اللي كانوا معاك في السفر؟؟؟

- تقصدي مين؟؟؟

- مش مهم هي مين، ما يهمنيش الاسم. أيامها كان اللي يهمني إنت.

متظاهرًا بعدم الاكتراث، قال:

- لو افترضنا إن كلامك ده مظبوط، عرفتي منين؟

- الست اللي جوزها بيعرف عليها واحدة تانية وهي ما تحسش، ما تبقاش أنثى.

بدأ يتملكه الغضب، ونفث دخانًا كثيفًا في الهواء، وقال:

- بس دي قصة قديمة أوي.

- أيوه من عمر بنتنا رانيا.

- أنا نسيتها من زمان! الموضوع ده انتهى من قبل ما يبدأ.

- بس حبك ليا كان انتهى.

سقط رماد السيجارة على بنطلونه، فأخذ ينفضه بسرعة. شعر بأن الحوار قد انقلب عليه، واستطاعت هي أن توجه له ضربة البداية التي أفقدته بعض توازنه. لم يرتب لذلك أراد أن يعود بخطته إلى مسارها الذي رتب له من قبل، قال:

- نزوة وراحت لحالها، وفضلت معاكي وحبي ليكي ما كانش انتهى. كنت لسه بحبك.

نظرت إليه بتعجب. استطرد قائلاً:

- كل الحكاية ساعاتها إنك كنتي مشغولة عني بالمولودة الجديدة وابننا الأكبر منها.

- وبعدين؟؟

- حسيت بفراغ كبير، حسيت إنك إتاخدتي مني.

- إتاخدت منك بأولادك.

- وأنا؟؟؟؟

- إنت إيه؟؟ كان مطلوب مني أعمل إيه؟ أمشي وراك أحرسك؟؟

- كان ممكن تحرسيني بمشاعرك، باهتمامك!

ظهر على وجهها علامات الأسى،، قالت:

- أنا كنت صغيرة أوي. كان لازم تراعي ده، المسئوليات كانت أكبر مني بكتير ولما غيرت شغلك ورحت الشركة الجديدة، بقي ليك مكتب كبير ومنصب و و و سكرتيرة.

قاطعها بغضب مفتعل، وقال:

- لا بقى لغاية كده وكفاية! إنتي طول المدة دي بتشكي فيا؟؟

- إنت كنت كتاب مفتوح بالنسبة لي، سطوره كنت بقرأها في عينيك. بس للأسف إنت ما كنتش بتشوف الدموع اللي في عينيا كل يوم، ولا كنت بتسمع بكائي الطويل أيام وليالي لغاية دموعي ما جفت وفقد البكاء معناه.

- إنتي ما أخدتيش أي خطوة توقف ابتعادي عنك.

- ابتعادك كان سريع. كنت عامل زي القطر اللي نازل بسرعة من فوق جبل.

- ورميتي طوبتي صح؟؟

- وإنت كنت عايزني أرمي طوبتك، كنت سعيد بده.

- أنا ما كنتش فارق معاكي.

- حبي ليك كان موجود طول الوقت، بس زي الدهب المطفي كان لازم تكون زي الجواهرجي تدعكه وتنضفه علشان يلمع وينور.

بضحكة مفتعلة قال، وقد بدأ يفقد أعصابه:

- بصي كويس في إيديكي وفي رقبتك، الدهب اللي بتتكلمي عنه أنا غرقتك بيه.

- كان نفسى تغرق قلبي بحبك.

- إنتي ما هيأتيش ليا الجو المناسب لكده، الملل كان بيغلف حياتنا، ملل في كل شيء. لا جديد، كلامك مكرر، طلباتك مكررة، لبسك مكرر، حتى ردود أفعالك. الملل كان عنوان حياتنا لمدة ٢٥ سنه جواز.

- بس الملل هو اللي مزعلك؟؟؟ أنا حافظت عليك، على بيتك وأولادك، أخلصت لك طول المدة دي بس واضح إنى زرعت في

أرض بور.

بعصبية شديدة، قال:

- الحياة معاكي فقدت معناها.

بهدوء وبصوت منخفض، قالت:

- بلاش إنفعال! إحنا مش جايين نتخانق، ولا جايين نرمي تهم على بعض، وإنت عارف كويس إنت جايبني هنا ليه.

- ليه قولي بقى إنك عارفه دي كمان؟؟

- إنت زمان، لما حبيت تقولي إنك بتحبني قبل ما تتقدم لي، أخدتني في مكان فخم أوي زي ده وعزمتني على الغدا، واعترفت لي فيه بحبك فاكر؟

- أيوة فاكر بس إيه علاقة ده بالموضوع؟؟

- بشوية تفكير بسيط، إنت جايبني هنا علشان تقولي قرار مصيري في حياتنا.

باضطراب شديد، قال:

- صح تمام.

- أنا عارفه قرارك، وده قراري أنا كمان. وعارفه كويس أوي إنك

كنت مستني الوقت المناسب.

نظر إلى الأرض بحزن شديد، وقال:

- لو فضلنا مكملين مع بعض يبقى دي أكبر خدعه بنضحك بيها على نفسنا.

قالت، وقد أحست وكأن طعنه نافذة قد وجهت إلى صدرها:

- كنا مستحملين علشان الاولاد.

- دلوقتي مفيش سبب يجبرنا على كده، تسمحي ننهي كل شيء بهدوء وبدون مشاكل.

تضحك بصوت مرتفع، ودموع الحزن تنهمر رغمًا عنها:

- مشاكل؟؟؟ هاهاهاها مشاكل؟؟؟ أنا لو عايزة مشاكل كنت عملتها من زمان. أنا عمري ما غضبت يوم واحد لبيت أهلي على مدار ٢٥ سنه.

- ممكن تهدي شويه؟ القرار ده صعب عليا أنا كمان زيك بالظبط.

تغالب دموعها، وتحاول التماسك:

- أهدى؟؟ أنا هادية جدا. ياللا إتفضل قول الكلمه إللي إنت جايبني هنا علشان تقولها لي.

- قصدك إيه؟ كلمه إيه؟؟

تحاول أن تظهر القوة، وهي تقول:

- الطلاق. ياللا إرمي اليمين.

- طيب والشكل الاجتماعي بعد العمر ده كله، الناس يقولوا علينا إيه؟ وكمان بنتنا على وش جواز، حالها هايقف.

بعصبية شديدة، وصوت مرتفع سمعه كل من في الباخرة، قالت:

- الناس! الناس! الناس! كل اللي يهمك الناس، وكل اللي يهمك ولادك. أنا ما ليش أي اعتبار في حياتك. اسمع أنا أديت رسالتي معاهم على أكمل وجه، إتعلموا وإتخرجوا. عايز مني إيه تاني؟ حرام عليك.

بدأ رواد الباخرة ينظرون إليهما ويتهامسون. أحس بالحرج ومال عليها، قائلاً:

- أرجوكي بلاش فضايح إحنا بنتفاهم بالراحة.

- إنت عايز إيه؟ قول وخلصني.

- إحنا هاننفصل بس مش هانتطلق.

- نعم؟؟؟؟ يعني إيه؟

- زي ما قلت لك، الشكل الاجتماعي مهم. أنا هاسيبك إنتي

والأولاد قاعدين في البيت. أنا هاخد شقة تانية أقعد فيها لوحدي. فلوسكم هاتوصلكم أول كل شهر وبزيادة كمان، وكل اللي هاتحتاجوه هاديهولكم. وهاتفضلي على ذمتي.

تضع وجهها بين كفيها، وتتمتم قائلة:

- حتى في الحالة دي بتتكلم عن الفلوس.

- ده حقكم عليا.

- آسفه. من حقي أبقى حرة، خلاص بقى كفاية كده. اللي همك الوضع الاجتماعي؟ يتحرق الوضع الاجتماعي. كرامتي أهم من كل ده، إنت كده عايز خدامة بأجر لاولادك وأنا لا يمكن أكون كده.

مندهشًا:

- طيب عايزة ايه؟؟

- عايزة أبقى حرة، طلقني لو سمحت. لو فاضل عندك أي ذكرى حلوة كانت بيننا نفذ لي طلبي.

وغالبتها الدموع مرة أخرى، فوضعت رأسها بين ذراعيها على المنضدة، وانهمرت في البكاء. وفي هذه اللحظة وصلت الباخرة إلى مرساها، واستفاقت هي على أصوات الضوضاء الناجمة عن مغادرة الرواد للباخرة تباعًا. أخذت حقيبتها وهمت بالانصراف، ثم استدارت

ونظرت إليه وهو جالس وقد بدا لها أكبر من سنه، وقالت له:

– وعلى فكرة نسيت أقولك مبروك الجواز الجديد. صغيرة وحلوة أنا مستنية ورقتي عند ماما.

نظر إليها، وقد اتسعت حدقتاه وفغر فاه ولم يستطع أن ينبسّ ببنت شفة. أشعل سيجارة، ونفث دخانًا كثيفًا في الهواء ولم ينتبه إلا على صوت الجرسون، يقول:

– الحساب يا باشا، خلاص شطبنا.

الطريق الإسفلتي

انفتح أمامه الباب الحديدي الكبير، صوت مصراعي الباب كاد يصم أذنيه، وضوء الشمس الحارقة كاد يذهب ببصره، خرج من الباب بخطى متثاقلة، وقد خط الزمان على جبينه، ورسم على وجهه بيده الثقيلة خرائط وطرقات، وجهه يشبه تمامًا ملابسه القديمة التي يلبسها والتي مضى عليها قرابة عشرين عامًا منذ أن خلعها على باب هذا المكان عند دخوله، واستبدلها ببدلة زرقاء داكنة. مظهره يوحي بأنه قد تجاوز العقد السادس من عمره بسنوات قليلة. نظر خلفه وقرأ العبارة المكتوبة على هذا الباب الكبير: (السجن إصلاح وتهذيب)، سمع صوتًا عاليًا يأتي من بعيد وكأنه يأتي من أعماق بئر مهجور: (هيا

انصرف ماذا تنتظر؟) كان صوت أحد حراس السجن، استفاق على هذا الصوت. إنه اليوم الذي انتظره منذ زمن، كان قد توقف عن عد أيامه، لقد تم الإفراج عنه. انتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، في البداية كان في شوق إليه، ثم بدأ هذا الشوق يخبو مع الوقت شيئًا فشيئًا، توقف عن انتظار الخروج، لم يعد ينتظر. نظر بعينيه الضيقتين المحمرتين إلى الطريق الإسفلتي، لا أحد ينتظره. إنه لا يعرف من سينتظره، آخر زيارة لزوجته كانت منذ سبعة أعوام، جاءت لتزوره بعد فترة انقطاع طويلة، كان وجهها شاحبًا، وكانت تتكئ بيد على عصا، وابنتها تمسك بيدها الأخرى. لا يذكر الآن على وجه الدقة ما دار بينهما من حديث، إلا أن ما يذكره أنها كانت تعاني من أمراض عديدة مزمنة، وابنته كان وجهًا نضرًا وكانت في أبهى صورها، فقد كان ميعاد زفافها قد اقترب. خطا بعض الخطوات نحو الطريق الإسفلتي، بدا كطفل يتعلم المشي، يتناهى إلى سمعه صوت عجلات السيارات المسرعة على الطريق. تذكر يوم أن جاء ابنه الوحيد وعلى وجهه علامات الحزن، ليخبره بأن أمه قد لقيت ربها. وليخبره بأن أخته قد أنجبت مولودًا جميلاً، وأنه يبحث عن عمل في الخارج وقد يسافر إلى إحدى الدول العربية ليعمل فيها سائقًا، إنها نفس مهنة والده العجوز. كانت هذه آخر مرة يزوره فيها

أحد، كانت منذ خمسة أعوام، ولا يعرف ماذا حدث، لم يعد يزوره من وقتها أحد. بدأ يسرع الخطى ليصل إلى الطريق الإسفلتي الممتد إلى ما لا نهاية، يتمنى أن يرى حفيده. أحس بسخونة الرمال تدخل إلى حذائه البالي الممزق. أين هو؟ أليس من الواجب أن يأتي لينتظر أباه يوم خروجه؟ - حدثته نفسه بذلك - ربما سافر ولم يعد إلى الآن. وابنتي؟ ربما انشغلت بابنها وزوجها. نعم، إنهم أبناء صالحون لن ينسوا أباهم. اقترب من الطريق الإسفلتي، ووقف على حافته. عليه أن يعبر الطريق ليستقل سيارة تحمله إلى مدينته. سأذهب إلى بيتي القديم، لا أعرف من يسكنه الآن. تحسس بيده جيب سترته، وأخرج منها مفتاحًا قديمًا صدئًا. "ها هو مفتاح بيتي، أتمنى ألا يكون قد تغير." بدأ يشعر بالرهبة. "ترى، هل أجد بيتي القديم أم أنه قد تهدم؟ ولكني لا أعرف مكانًا آخر أذهب إليه الآن. حسنًا، عليّ أن أعبر الطريق لأستقل سيارة من الاتجاه المعاكس." (كان يهمس بذلك لنفسه.) بدأ يترك الرمال ليطأ بقدميه الطريق الإسفلتي، عندما شعر بصلابته تحت قدميه، لاحت أمام عينيه صورة زوجته بوجهها الشاحب المريض في آخر زيارة لها، ووجه ابنته النضر وسعادتها لاقتراب موعد زواجها، طالعته نظرة اليأس الحانق في عيني ابنه وهو يخبره بأنه يبحث عن عمل بالخارج. كان قد وصل

إلى منتصف الطريق الإسفلتي، عندما سمع صوتًا مفزعًا، كانت صوت فرامل السيارة المسرعة. هرول حراس السجن ليحملوه إلى الداخل، أرسلوا خطابًا إلى عنوانه المدون عندهم في السجلات، وانتظروا أيامًا.، ولكن لم يأت أحد لتسلم جثمانه.

قلب بلا جسد

مظهره يثير الضحك، وأحيانا الشفقة، بدين، مترهل، قصير القامة إلى حد القزامة، ذو أنف أفطس كبير، نظراته توحي بالبلاهة، يطلقون عليه اسم (فتله).

فتله، صبي المعلم حسن الجزار، مع منظره هذا، قلبه قلب شاعر حالم. لذلك عانى كثيرًا من عدم شعور الناس به. عندما كان يجلس وحيدًا، كان يفكر في قصص الحب الكثيرة التي تدور من حوله، سيد صبي المكوجي، يحب بنت بواب العمارة التي يوجد بها محل المكوجي، هي أيضًا تحبه، فقد شاهدهما أكثر من مرة يدخلان الحديقة العامة المجاورة، وكل منهما يمسك يد الآخر، وهما يتهامسان

ويتضاحكان. سالم صبي النجار، يحب الخادمة التي تأتي إلى العمارة كل جمعة، وهي أيضا كثيرًا ما تقف معه طويلاً داخل الورشة في غياب النجار المعلم حامد، الذي يعمل عنده. هو أيضًا يعيش قصة حب مع إحدى زبائن المحل.

تمدد فتله ليلاً فوق صندرة محل الجزارة، حيث كان يبيت. وكان يعقد يديه خلف رأسه، ناظرًا إلى سقف المحل في شرود. حدث نفسه قائلاً: لماذا لا أستطيع أن أرتبط بفتاه مثل باقي أقراني؟ أنا لا أستطيع أن ألفت انتباه أية فتاة، شكلي هو السبب؟ وما ذنبي أنا في هذا؟ لم أخلق نفسي. شعر بألم في رأسه، وبأن سقف المحل ينزل تدريجيًا ليطبق على صدره، سمع مواء قطة، فنظر إلى أسفل فوجد قطًا وقطة يمارسان طقوس الحب أسفل المنضدة. قال بصوت مرتفع: حتى القطط؟؟ وأغمض عينيه واستسلم للنوم.

في اليوم التالي، كان يلبس الجلباب الأبيض، وعليه أثار الدماء، ويقوم بتقطيع اللحوم لبعض الزبائن، عندما دخلت هي إلى المحل. كانت فتاة جميلة، أنيقة، في أوائل العشرينات من عمرها، ينسدل شعرها الناعم خلف ظهرها. اشترت بعض اللحوم، وطلب المعلم حسن منه أن يعبأها لها، ويوصلها إلى سيارتها. سار خلفها حتى وضع اللحوم في السيارة، نظرت إليه مبتسمة، فدق قلبه بعنف، وأعطته (البقشيش)،

وانصرفت. بدأ يفكر فيها عندما ينظر إلى سقف المحل ليلاً، قبل أن يستسلم للنوم. رآها عدة مرات، وفي كل مرة كان قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه، امتلأ قلبه حبًا لها.

حاول في إحدى المرات أن يتحدث إليها، وهو يوصل اللحوم لسيارتها، تمتم لها ببعض الكلمات غير المفهومة، فنظرت إليه، ولم يتضح لها ما قاله. ابتسمت، ظنت أنه يطلب (البقشيش)، أعطته إياه وانصرفت.

حدث نفسه مساءً: لماذا لا تشعر بي؟ قلبي يمتلئ حبًا لها. ما ذنبي أنا في أنني بهذا الشكل؟ هذا الجسد الغريب، هذه الملامح القبيحة، لا ذنب لي في هذا. أنا لم أخلق نفسي." شعر بنفس الألم في رأسه وبأن السقف سينهار فوقه. انتفض من مكانه وخرج من المحل ليتنسم هواء الليل الصافي.

قرر فتله أن يتغير، استبدل الجلباب الأبيض الواسع بقميص وبنطلون، وقام بتسريح شعره الخشن قدر المستطاع، ولبس حذاءً في قدميه بدلاً من (الشبشب). كان مظهر فتله الجديد، يثير الضحك بالفعل؛ فلقد أظهر البنطلون عيوب جسده التي كان يخفيها الجلباب الواسع؛ فالجلباب سترة، كما يقولون. تلقى الضحكات والتعليقات الساخرة بدموع متحجرة في عينيه. لم يستسلم، سيصارحها بحبه

وليكن ما يكون، إنها حبيبته الوحيدة. لابد أنها ستشعر به، ستفهمه، ستعرف بأن هذه النظرات البلهاء والملامح القبيحة تحمل قلبًا صافيًا محبًا. نعم، سوف أصارحها، وليكن ما يكون.

بعد أن وضع اللحوم في سيارتها، مدت يدها (بالبقشيش). لم يمد هو يده ليأخذه، نظر في عينيها، وبصوت ضعيف، قال لها: أريد أن أقول لك شيئًا، فهل تسمحين لي؟

قالت له، و قد تغيرت ملامحها، واستبدلت الابتسامة بالدهشة: تفضل.

نظر إلى الأرض، وقال لها: أنا أحبك.

انفجرت في ضحك متواصل، وقهقهة عالية: أنت! أنت؟؟

تملكه الغضب، فأمسك ذراعها بقوة، وقال بصوت مرتفع: نعم، أنا.. أنا أحبك. لماذا تسخرين مني؟ تبًا لجسدي اللعين، وملامحي الدميمة التي تقف حائلاً دون سعادتي.

انتزعت ذراعها بقوة من بين يديه الغليظتين، وتملكها الخوف. وما لبث أن شاهدهما المعلم حسن الجزار، فجاء مهرولاً: أنا آسف يا هانم. أنا آسف على ما حدث. ثم التفت إلى فتله ولطمه على وجهه بقوة، فكاد يسقط على الأرض: ليس لك عمل عندى. انصرف، ولا

أريد أن أرى وجهك القبيح هذا مرة أخرى.

انصرف فتله والحزن والألم يعتصرانه، انطلق ناحية الكورنيش، جلس على أحد الكراسي الخشبية المثبتة على الرصيف، وأخذ يتأمل النيل، وماؤه يجري. وضع وجهه بين كفيه، وانهمر في بكاء شديد. شعر بأن هناك من يقف أمامه، رفع بصره، فوجد فتاة في مثل عمره يبدو من ملابسها البالية وشعرها الأشعث، أنها تتسول على الكورنيش. نظر في عينيها، رآى نظرة لم يرها من قبل، نظرة حانية وابتسامة ساحرة. مسح دموعه وسارا معًا على الكورنيش.

الضربة الأخيرة

"هذه الشجرة المائلة التي ستسقط على سطح منزلي، لا بد من قطعها اتقاءً خطرها. قد تسقط على أحد من أهل البيت فتحدث الكارثة، أو تهدم المنزل الذي بنيت كل طوبة فيه بالكد والعرق."
(حدث عم عبد الباقي – الفلاح الفقير – نفسه.)

في الصباح، ربط عم عبد الباقى نهاية غصن الشجرة بحبل متين، وشده جيدًا في اتجاه معاكس لاتجاه البيت، وربطه في شجرة أخرى بعيدة حتى لا تسقط الشجرة على البيت بعد قطعها. أمسك بالبلطة الكبيرة، وأمسك معها بهمومه. قبض عليها كما يقبض على أحزانه، رفعها عاليًا في الهواء، ارتفعت معها آماله؛ فلقد أخبره تاجر الأخشاب

بأنه سيشتري منه هذه الشجرة العملاقة بمبلغ كبير. ضرب جذر الشجرة ضربة قوية. من ثمن الشجرة سيسدد رسوم المدرسة لأبنائه؛ فالناظر أمس هدده بعدم دخولهم الامتحان. رفع البلطة عاليًا، فارتفعت معها معنوياته. ضرب الجذر ضربة ثانية، سيدفع للبقال مديونته. ضرب الجذر، سيشتري لابنته الملابس التي تريدها في جهازها. جاره اللعين الذي زحف على جزء من أرضه وضمها إليه، سيدفع أتعاب المحامي، هذه الضربة لجاره اللعين. موظف السجل المدني الذي يماطله في استخراج البطاقة الجديدة، لأنه لم يدفع الأكرامية، سيدفعها له وسيحصل على البطاقة. هذه الضربة للموظف المرتشي. الطبيب الجشع الذي رفض إجراء العملية لابنه الصغير، سيجريها، هذه الضربة للطبيب الجشع. نظر إلى الشجرة التي مالت وأوشكت على السقوط، باقي ضربة واحدة وتسقط الشجرة. رفع البلطة عاليًا ليضرب الضربة الأخيرة، ستكون هذه الضربة القوية لتاجر الغلال الذي يستغل حاجته وفقره، ويشتري منه المحصول بأبخس الأسعار. ضرب تاجر الغلال بكل ما أوتي من قوة، وبدأت الشجرة الكبيرة في السقوط محدثة صوتًا كبيرًا ومفزعًا. زوجته وأبناؤه يقفون خارج المنزل بعيدًا إيثارًا للسلامة. لم يتحمل الحبل المتين ثقل الشجرة فانقطع، وانقطع الأمل. غيرت الشجرة مسار سقوطها، وتهاوت على منزله. تهاوت أحلام عم عبد

الباقي، وتهاوى ساقطًا على الأرض. تعالت صرخات الزوجة والأبناء، نظر إلى زوجته. بثمن الشجرة سيصلح المنزل المنهار. نظر عم عبد الباقي إلى الحبل المقطوع والشجرة الساقطة، وأدرك أن الحبل قد تحمل أكثر مما يطيق فانقطع.

الصديق الوفي

كانت عروسه الجميلة محط أنظار جميع الحاضرين المنبهرين بجمالها الأخاذ وخفة ظلها، التي أشاعت البهجة والسرور، وجعلت حفل الزواج الصغير المحدود وكأنه حفل كبير بأكبر فنادق العاصمة. انتهي الحفل، وفاز بعروسه الجميلة، وقضى معها شهر الإجازة التي اقتطعها من عمله بإحدى دول الخليج ليتزوج. مر الشهر سريعًا، ودعته بدموعها في المطار، وسلم عليه بحرارة صديقه الوحيد زياد. لم يذهب إلى وداعه غيرهما. نزلت من سيارة زياد أمام بيتها باكية على فراق زوجها، طلب منها قبل سفره أن تعتبر زيادًا مثل أخيها تمامًا، وأن تستعين به إذا ما ألم بها أي شيء، كما طلب من زياد أن يعتني بزوجته.

سيعود بعد عام. لم تنقطع الاتصالات بينه وبينها، استكملا شهور العسل تليفونيًا، وعلى الإنترنت.

مضت شهور، رن هاتفه المحمول، رقم زياد، يظهر صوته حزينا أصابه بالخوف.

هو: مال صوتك يا زياد؟

زياد: أبدا مفيش حاجة، بس عندي شوية برد.

هو: برد إيه؟ هو أنا مش عارفك؟ دي عشرة عمر فيه إيه قولي مراتي بخير؟

زياد مترددًا: أيوه أيوه بخير، ما تقلقش.

هو: لأ فيه حاجة، ماما وبابا وإخواتي كويسين؟

زياد بلا تردد: أيوه تمام، كلهم كويسين.

هو: مراتي مالها يا زياد؟ صوتك قلقني.

أغلق زياد المكاملة، دارت به الأرض. لابد أن مكروهًا ما قد حدث لها، اتصل بصديقه زياد مرة أخرى على عجل، هاتفه مغلق مرات و مرات، ويأتيه الرد: (الهاتف الذي اتصلت به ربما يكون مغلقًا.)

بسرعة، اتصل بزوجته وأتاه صوتها جميلاً رقيقًا كعادته.

هو: حبيبتي، إنتي كويسة؟

هي: أيوه يا حبيبي، أنا بخير إنت عامل إيه؟ وحشتني.

هو: متأكدة إنك كويسة؟

هي، ضاحكة: أيوه أنا تمام، مش ناقصني غيرك.

أنهى المكالمة ولم ينم ليلتها. وفي اليوم التالي، اتصل بزياد فردّ عليه بحزن.

هو: زياد عايز أعرف فيه إيه؟

زياد: مش قادر أقولك.

هو: إنت كده هاتموتني من القلق، قول فيه إيه؟

زياد: إنت عارف إنت إيه بالنسبة لي، إنت صديق عمري و...

قاطعه: إتكلم بقى فيه إيه؟

زياد: أنا عمري ما هاغشك ولا اضحك عليك مهما حصل و...

هو: انطق بقى، فيه إيه؟

زياد: مراتك.

هو: مالها؟ أنا اطمنت عليها بالتليفون وهي كويسة.

زياد: طبعًا، ما هي لازم تكون كويسة؟

هو، بدهشة: مش فاهم.

زياد: هي مش حاسة إنك مسافر طبعًا، مش ممكن تحس بغيابك، لأن فيه حد تاني في حياتها وعايشة حياتها معاه.

هو مفزوعًا: زياد! إيه إللي إنت بتقوله ده؟ إنت كداب كداب.

زياد: أنا آسف بس لو إنت مش عارفني كويس، أبقى فعلاً كداب.

وأغلق التليفون ودارت الأرض به، اتصل بأبيه وسأله عن زوجته، فأخبره أنها بخير وسعيدة جدًا (سعيدة جدًا!)، ازداد قلقه. اتصل بأمه، فأخبرته بأن زوجته تقيم في شقة الزوجية، ولم تذهب لبيت أبيها كما اتفقوا، وأنها لم تزرهم سوى مرة واحدة. اتصل بزوجته كان صوتها مرحًا مبتهجًا، أبعد ما يكون عن صوت عروس مشتاقة لعريسها، أو زوجة سافر عنها زوجها. ظل مستيقظًا طوال الليل، وقبل الفجر بقليل اتصل بها، وما إن ردت عليه وصوتها نائم، حتى ألقى على مسامعها لفظ الطلاق وأغلق تليفونه.

مرت أسابيع وأخبره أبوه أنه أنهى بالوكالة جميع إجراءات الطلاق، وأنها أخذت متعلقاتها وتركت الشقة،وأنهم لا يعرفون إلى أين ذهبت. اتصل بصديقه زياد فلم يرد عليه يبدو أنه حزينٌ لأنه وصفه بالكاذب، ولكن يجب أن يقف بجواره في هذه الظروف (حدث نفسه).

عندما عاد إلى مصر، إكتشف الكثير من الحقائق،،، وفي المحكمة

وفي أول جلسة، اعترف بجريمته أمام القاضي وأمام الجميع.

قال بحزن عميق وغضب مكتوم، وهو يضغط على أسنانه: "نعم لقد قتلته، قتلت زيادًا صديق عمري، قتلته لأني لم أستطع أن أتخيل ما حدث. لقد أخبرني أحدهم، وذهبت بنفسي وضربت جرس الباب في العنوان الذي حدده لي من أخبرني، وفتح لي الباب بنفسه، وكانت هي تقف خلفه. لم أستطع أن أمنع نفسي من قتله، بعد أن تزوج من عروستي."

أحلام البرتقال

في بيت من الطوب اللبن أشبه بعشة، ذي سقف من سيقان الأشجار، يعلوها بشكل متقاطع بعض الجريد والبوص، مكون من صالة صغيرة تفتح فيها غرفة أصغر، كأغلب بيوت القرية، كان يتمدد في زاوية من زوايا هذه الصالة، يلتحف غطاء صوف قديم مهلهل، يحاول أن يلفه حول جسده النحيل ليتقي به برودة الجو. هذا الغطاء لا يغني عنه من البرد شيئا فلا يستطيع النوم. الجوع أيضًا يمنعه النوم، لم تغنه كسرة الخبز الجاف مع قطعة من الجبن القديم التي قدمتها له أمه في العشاء، صبي مثله في الثانية عشرة من عمره، لا يكفيه هذا، خاصة إذا أعقب يومًا شاقًا من العمل الدؤوب في مزرعة كبيرة على مشارف

القرية، حيث يقوم مع صبية مثله بجمع ثمار البرتقال الناضج من على الأشجار وتعبئته في أقفاص بطريقة منتظمة، ثم حملها إلى السيارات، التي تقوم لاحقًا بنقلها إلى السوق الكبيرة في المدينة المجاورة. هذا العمل فاز به الصبي مؤخرًا، عندما سعت أمه لدى مخدومتها لتتوسط لها لدى زوجها صاحب المزرعة الكبيرة، ليسمح لابنها بالعمل في مزرعته، ليصير واحدًا من مجموعة العاملين في المزرعة، بين رجال وصبية وبنات من القرية والقرى المجاورة. أحس بلسعة البرد وقسوته تزداد، نظر إلى باب البيت، هذا الباب اللعين المليء بالثقوب والفتحات التي يمر من خلالها الهواء البارد، فيشعر وكأنه نائم في قاع النهر، أو كأنه قد تم الزج به داخل ثلاجة الفاكهة الكبيرة الموجودة في المزرعة، سحب الغطاء البالي ليغطي به رأسه فانكشفت قدماه، تكور في نومته حتى يشمل الغطاء جميع جسده.

لم تستطع أمه فعل شيء أكثر من هذا، فهو أكبر أبنائها، وكانت في انتظار اليوم الذي يشب فيه عن الطوق لتلحقه بالعمل في المزرعة ليجلب لها بعض المال، لم يعمل من قبل، إذ كانت تتركه في البيت بجوار أخته وأخيه اللذين يصغرانه بقليل، فلا أحد يعمل في هذا البيت سواها، فزوجها رجل مسن قعيد قد تجاوز السبعين من عمره، وقد ثقل سمعه وضعف بصره، يقضي يومه أمام باب البيت مستندًا إلى الجدار

لا يحرك ساكنًا. تتذكر جيدًا يوم أن جاء ليطلبها من أبيها، كانت في العشرين من عمرها، وكان يكبرها بأكثر من ثلاثين عامًا. فرح أبوها وقتها بهذه الزيجة لأنه سوف يتخفف من مؤونتها، تتذكر أيضًا الدموع التي انسابت من عيني أمها في ذلك اليوم، دموع صامتة لا تقوى على الكلام، كان فقيرًا وهم فقراء، فانتقلت من بيت أبيها المدقع إلى بيت زوجها الخاوي. أحيانًا الفقراء يتوارثون الفقر. تزوجها بعد أن ماتت زوجته الأولى دون أن تنجب له أولادًا، أما هي فأنجبت له هؤلاء الثلاثة وابنة أخرى كانت تكبرهم،إلا أنها ماتت منذ فترة من الزمن وهي لا تزال طفلة صغيرة من جراء حمى شديدة ألمت بها، لم يستطيعوا علاجها، لو كانت على قيد الحياة الآن لكانت شابة جميلة أو زوجة، أما باقي الأبناء الصغار فلا يقوون على العمل. عندما حصلت على الموافقة لابنها للعمل في المزرعة، كانت في غاية السعادة، لقد وعدها صاحب المزرعة بأن يعطي ابنها ثلاثمائة جنيه أجرًا شهريًا بواقع عشرة جنيهات يوميًا، طارت يومها إلى البيت واحتضنت زوجها القعيد ولم تفعل ذلك من زمن بعيد، حاولت إخباره بما حدث ولكنها لم تدر أسمعها أم لا. لا تعرف، إلا أنها لاحظت علامات الرضا على وجهه المتجعد.

ازداد البرد وتحالف معه الشعور بالجوع، صوت حركة أمعائه الخاوية تحول بينه وبين الاستسلام للنوم. قام وجلس في مكانه ونظر

حوله، البيت كان مظلمًا إلا من ضوء خافت يأتي من آخر الشارع من مصباح عمود النور الباهت، الذي اتسخ زجاجه وتراكمت عليه الأتربة ومخلفات العصافير، فحجبت معظم ضوئه. نظر إلى الأشباح الممددة على الأرض بجواره، إنهما أخوه وأخته يتململان في النوم، وبداخل الحجرة الوحيدة في المنزل التي انخلع المفصل العلوي لبابها فمال الباب كثيرًا إلى الداخل كما لو أنه سيسقط لتوه، في داخل هذه الحجرة الضيقة يرقد أبوه وأمه. قام بتحسس الوعاء الذي تحتفظ فيه أمه بالطعام، كان الوعاء خلف الباب المائل للحجرة. أخذ يتخطى هذه الأجساد الصغيرة النحيلة الممددة على الأرض والمتململة في نومها، تحسس مكان الوعاء فارتطمت يده به، كشف الغطاء ووضع يده داخله فلم يجد شيئًا. هذه البطون الخاوية والأفواه الفاغرة ما كانت لتترك شيئًا في الوعاء. عاد إلى مكانه مسرعًا يرتجف من شدة البرد، تكور على الأرض كما فعل سابقًا، والتف بغطائه الصوفي البالي مرة أخرى.

لن أبقى على هذا الحال، لقد تغير الأمر الآن – يقول محدثًا نفسه – أنا الآن أعمل وسأطلب من صاحب المزرعة عملاً إضافيًا، سأطلب منه أن يجعلني من الحراس الليليين في المزرعة، وقتها سأحصل على ثلاثمائة جنيه أخرى. نعم، نعم، وبذلك أكون قد حصلت على ستمائة جنيه شهريًا، سأدخر منه كل شهر وبعد بضعة شهور سيكون

في استطاعتي أن أشتري أقفاصًا من البرتقال ومن الفواكه الأخرى، سأعطيها لأمي لتبيعها في السوق وتربح منها. أجل ستصبح أمي بائعة، والبائعة أفضل من الخادمة. بعد ذلك سأشتري دكانًا في القرية – يحدث نفسه – سأصبح تاجرًا. هذا البيت المتواضع لن يليق بي وقتها، سأبني بيتًا كبيرًا يليق بتاجر، وستكف أمي عن العمل، سأنام ممتلئ المعدة أنا وإخوتي، لن أسمح للبرد باقتحام غرفتي، سيكون الباب محكمًا والنوافذ أيضًا. شعر بصدمة مؤلمة في ظهره، كان أخوه الأصغر يتقلب، فاصطدمت رجل أخيه بظهره، شعر بألم وسمع من بعيد نباح كلب ضال، خيل إليه أن هذا الكلب لا يستطيع النوم لأنه بردان وجائع مثله، سحب الغطاء على رأسه مرة أخرى من شدة البرد، وحدث نفسه بأنه سيشتري كلبًا كبيرًا ليضعه في فناء بيته الكبير عندما يصبح تاجرًا. أحس باطمئنان ما، فداعب النوم جفونه، بدأ يستسلم للنوم لحظة سمع صوت أمه تناديه ليستيقظ، فقد لاح ضوء الصباح، حتى لا يفوته الذهاب اليوم إلى المزرعة لجمع ثمار البرتقال الناضج من على الأشجار وتعبئته في أقفاص بطريقة منتظمة، ثم حملها إلى سيارات النصف نقل، التي ستقوم لاحقًا بنقلها إلى السوق الكبيرة في المدينة المجاورة.

نصل السكين

اتفقا على أن يفترقا، الحب الكبير آن له أن ينتهي. ودعها وانصرف. لم ينم ليلتها، لا يرى غيرها، لم يعد يذهب إلى العمل، يستيقظ ليلاً مفزوعًا فيجد دموعه على وسادته. توقفت الحياة بالنسبة له. لم يكن يعلم عندما أحبها أنها ستكون سبب تعاسته، ظروفهما غير المتناسبة فرقت بينهما، رغبتها العارمة في ضمان الاستقرار فاق حبها، ظلمها آخرون قبله، فدفع هو الثمن.

اتصل به مديره: إن لم تأت إلى العمل غدًا، سيتم فصلك.

لم يستطع الذهاب، أرسلوا له خطاب الفصل. نظر إليه وضحك بسخرية، لا قيمة له، بل لا قيمة للعمل، بل لا قيمة للحياة دونها. شهر

كامل لم يخرج من المنزل، طالت لحيته وشعره، نقص وزنه. نظر إلى نفسه في المرآة، فرأى شبحًا يتهاوى، قرر شيئًا.

اتصل بها في الصباح: أريد أن أقابلك الليلة. وافقت، وفي المساء قابلها في سيارته، كانت مثله شبحًا ضاويًا؛ فالهالات السوداء تحيط بعينيها. بإحباط قال لها:

- إنتي حزينه علشان إفترقنا؟

- أنا مش بنام.

- أنا مش قادر أعيش من غيرك.

- ولا أنا.

انطلق بسيارته مُسْرعًا، صوْبَ جبل المقطم، وفي مكان ناءٍ على حافة الجبل أوقف السيارة، وأحكم غلق أبوابها، وأغلق زجاجها الأسود الذي يحجب الرؤية عن من خارجَها.

لم ينتابها أي شعورٍ بالخوف، فهي تثق به، وتعلم جيدًا أنه لن يُؤْذيَها. نَظَر إليها بيأس، ثم أخرج من أسفل الكرسي سكينًا كبيرًا ذا نصل حاد لمع في الظلام.

فزِعت، صرخت ثم حاولت النزول من السيارة.

قال لها بألم:

- ما تخافيش يا حبيبتي، أنا عمري ما هأذيكي.

- إيه إللي في إيدك ده؟ إنت عايز تموتني؟

- لا.. لا.. لا.. تنقطع إيدي قبل ما أعمل كده.

هدأت قليلاً، ثم قالت:

- طيب ناوي تعمل إيه؟

- أنا ما ينفعش أعيش من غيرك، الحياة ما لهاش معنى. الموت أرحم، بس أنا لو انتحرت هاخسر الدنيا والآخرة.

- بعيد الشر عنك. ليه تفكر بالطريقة دي؟

واصل حديثه اليائس، وكأنه لا يسمعها:

- أجمل موتة بالنسبة لي، إني أموت على إديكي.

قالت بفزع:

- لا مش ممكن، أنا مش ممكن أعمل كده.

وكأنه لا يسمعها وكأنها لم تتحدث، وضع سن السكين الحاد على قلبه بدقة. أمسك يدها وطبع عليها قبلة حانية ووضعها على مقبض السكين، وقال لها:

- لو حبيتيني في يوم من الأيام اضغطى على السكين، هي ضغطة

واحدة وعذابي هاينتهي، يمكن ألم السكين يداوي ألم الفراق. أرجوكي نفذي لي آخر طلب أطلبه منك.

ارتعدت يداها ولم تستطع أن تنطق بكلمة، انسابت الدموع من عينيها، حاولت أن تضغط على السكين، لم تستطع أحست أن جسدها كله يهتز. هو أيضًا جسده يهتز. لاحظت أن السيارة تهتز بشدة، إن السيارة تتحرك، السيارة تنزلق من أعلى جبل المقطم. لقد أوقف السيارة على منحدر، ولم يشعر بأنها تتحرك، وفي غمرة يأسه نسي أن يشد فرامل اليد، سقطت السكين من يديهما، أمسك كل منهما بيد الآخر بقوة. سقطت السيارة من سفح الجبل، وعندما أخرجوا جثتيهما تعجب الحاضرون، كان مبتسمًا.

الفرعون الصغير

تقدم الشاب الأسمر الطويل، مرتديًا الزي (اليونيفورم) الأنيق الخاص بالفندق المطل على نيل الأقصر الرائع، وبلغة إنجليزية جيدة سأل الجروب السياحي عما يريد أن يطلبه من مأكولات أو مشروبات. شرعوا يطلبون ما يريدون، في حين أخذ يدونها في ورقة بيده باهتمام، انتظرت إحدى السائحات لتكون آخر من يطلب، أخذت وقتًا في التفكير في حين كانت تستفسر منه عن نوعية المأكولات الموجودة في الفندق، وعن الأكلات المصرية الشهيرة. ساعدها في الاختيار، فابتسمت له شاكرة، وانصرف ليجهز لهم ما يريدون.

لم يكن يعلم أن هذه اللحظة ستغير مجرى حياته بالكامل، في

صباح اليوم التالي، وأمام حمام السباحة أشارت إحدى السائحات إليه، إنها نفس السائحة التي ساعدها أمس في اختيار الطعام. كانت ترتدي البيكيني، امرأة في بداية الستينات من عمرها، ما زال وجهها يحكي قصة جمال فائت، وردة ذابلة لكن جسدها لازال يحتفظ برشاقته فهو مشدود رياضي كجسد فتاة في العشرين، تتمدد تحت أشعة شمس الأقصر الدافئة لتكتسب اللون البرونزي الجذاب. تبادلت معه الحديث، شاب فقير من إحدى قرى الصعيد، عمره ثلاث وعشرون سنة، ويعول أسرة كبيرة العدد، من أبيه وأمه وإخوته.

لم يستغرق الأمر طويلاً، اختارته من بين جميع العاملين في الفندق، فهو أكثرهم قوة وشبابًا ووسامة، يبدو كفرعون صغير، جاء من القرون السالفة. طلبت منه أن يذهب معها إلى غرفتها، رفض بشدة وأوضح لها أن دينه لا يسمح له بذلك وأنه لن يقيم أية علاقة إلا في نطاق الزواج، فعرضت عليه الزواج، أوضح لها أنه لا يستطيع أن يسافر معها و يتخلى عن أسرته التي يعولها، تعهدت له بأن تعطيه أموالاً ليرسلها إليهم كل شهر، طلب مهلة للتفكير.

جلس ليلاً أمام منزله القديم المتواضع على ضفاف النهر المتدفق، ومن حوله حقول القمح. أخذ يتناول الحصى الصغير من الأرض ويرمي به في مياه النهر، لتتكون دائرة صغيرة تتبعها دوائر أخرى، وتتسع

الدوائر لتشمل جزءًا كبيرًا من النهر. دوائر واسعة مركزها الحصاة الصغيرة التي كانت ملقاة منذ قليل في التراب. حدث نفسه قائلاً: إذا كانت هذه الحصاة الصغيرة استطاعت أن تصنع لنفسها دوائر متعددة ومتسعة في مياه النهر، أفلا يستطيع هو أن يصنع لنفسه دائرة أوسع؟

شعر بيد كبيرة على كتفه، التفت بسرعة خلفه فوجد أباه مبتسمًا، كهل كبير قد أنهكته الأيام كجذع الشجرة التي تكسرت أغصانها، وتساقطت أوراقها، فأصبحت واقفة وحدها في العراء.

قال الأب بحنان وشفقة: مالك يابني قاعد لوحدك ليه كده ومهموم؟ فيه حاجة لا قدر الله؟

قال الابن، بعد أن زفر زفرة في الهواء: أيوه يا أبويا فيه.

الأب: خير يا بني.

الابن: قدامي صفقة كبيرة أوي، إذا وافقت عليها هاتغير حياتنا كلنا، وإذا رفضتها مش هاتتكرر تاني.

الأب: طيب إحكي لي يا بني يمكن أقدر أساعدك. صحيح أنا ما اتعلمتش في المدارس، بس معايا دكتوراة في الحياة هههههههه.

الابن ضاحكًا: ربنا يخليك لينا يا أبويا، إنت الخير والبركة. شوف يا سيدي، النهاردة قابلت واحدة أجنبية عايزة تتجوزني وتاخدني معاها

بلدها، وهاتتكفل بكل مصروفاتكم هنا، وكل طلباتي هناك.

سرح الأب بفكره ناظرًا إلى ماء النهر الجاري، وصوت نقيق الضفادع القادم من بعيد يملأ الأسماع، وبدا كما لو كان يتذكر شيئًا قديمًا.

الابن: سرحت في إيه يا ابويا؟

الأب: الست دي كبيرة فوق الستين مش كدة؟

الابن مندهشًا: صح عرفت منين؟؟

الأب: الزمن بيكرر نفسه دايمًا يا بني، الأرض بتلف، وكل حاجة بتعدي بتلففها وترجعها تاني بس بعد سنين.

الابن: مش فاهم قصدك إيه؟

الأب: شوف يا بني، الموضوع ده بيحصل كتير هنا عندنا في الاقصر وفي أسوان كمان. في بلاد الخواجات، الست لما بتكبر في السن محدش بيبص لها، حتى جوزها بيشوف له واحدة صغيرة يمشي معاها، وبيحسوا بالإهمال والحرمان، وبييجوا هنا علشان يختاروا الشباب الصغير العفي اللي زيك ويعرضوا نفسهم عليه مقابل الفلوس. وأنا حصل معايا الموضوع ده قبل ما أتجوز أمك.

الابن مشدودًا: حصل معاك؟؟ إزاي؟ إحكي لي. وعملت إيه؟

الأب: أبدًا يابني، رفضت وما سافرتش معاها، وأدي إنت شايف

حالي بقى عامل إزاي. ما تكررش غلطتي يابني، دي فرصه عمرك. هاتشوف بلاد الله وتشوف العالم وهاتتمتع وهاتكسب.

الابن: يعني إنت موافق يا أبويا؟

الأب: والله يا بني مش علشاني ولا علشان إخواتك الصغيرين إللي عايزين يتربوا دول، أنا بقول كده علشانك إنت. بس ما تطولش هناك، كام سنه كده وإرجع تاني تكون عملت قرشين، وساعتها بقى تخطب وتتجوز إللي انت تشاور عليها.

تزوجها وسافر معها إلى بلدها. كانت امرأة ثرية، تمتلك شركة وفندقًا وتقيم في فيللا أنيقة. كل شهر تعطيه مبلغًا كبيرًا من المال ليرسله إلى أهله، وكان يسلمها نفسه، صفقة رابحة للطرفين. الأب في بلده، يشتري الأرض والعقارات، والابن يعمل بجد واجتهاد كزوج مثالي. وهي تتباهى به أمام صديقاتها اللاتي بدأن بالفعل يفكرن في السفر إلى الأقصر وأسوان، لاستقدام زوج كهذا الفرعون الصغير. بعد فترة، بدأ يشعر بالملل؛ فهو لا يعمل أي شيء إلا عمله كزوج، وهي تحبسه في الفيللا فلا يذهب إلى أي مكان إلا معها. شعرت بضيق صدره فسمحت له بحرية الحركة، ورفعت له الأجر. أعجبت به صديقاتها؛ فلونه الأسمر وقوامه الممشوق عملة نادرة هناك. بدأن في عرض الأموال

عليه ليأتيهن سرًا، رفض؛ فدينه لا يسمح له بذلك، واستمر في العمل بكل جهد. وعرف صدق كلام أبيه، فالرجل الأوروبي - بصفة عامة - لا يهتم بالمرأة التي كبرت في السن، فكن يشعرن بالفراغ العاطفي.

مرت عشر سنوات، عندما أخبره أبوه بأنه أصبح من أعيان البلدة، قرر العودة ليجني ثمار عمله. أخبرها بقراره، رفضت بشدة، صمم، ثارت، عيّرته بفقره، عيّرها برغباتها الأنثوية التي لا تنتهي، هددته بأنها تستطيع أن تلقي به في السجن، فهي تعرف الكثير من المسئولين في بلدها.

تظاهر بالتراجع عن قراره، وبعد عدة أيام كان على متن الطائرة المتجهة إلى القاهرة، وفي بلده وجد الأمر قد تغير تمامًا؛ فإخوته قد تلقوا تعليمهم في أحسن المدارس الخاصة، أراضٍ ومطاعم أصبحت ملكًا لهم، ذاع صيته، قرر شراء الفندق الذي كان يعمل فيه.

في مكتبه المطل على النيل في الفندق، شاهد سائحة عجوز تتجاذب أطراف الحديث مع شاب أسمر، ممشوق القوام، صغير السن. استدار بكرسيه الوثير مطلقًا ضحكات عالية، سمعها كل المحيطين به.

للتواصل مع الكاتب

الاسم: حسام الدين باظة

hossam.baza.1@facebook.com

hossam_baza@hotmail.com

الفهرس

الإهـــداء ٥

تقديم المجموعة ٧

المقدمة ٩

النافذة الزجاجية ١١

الشقة المقابلة ١٧

المعطف القديم ٢٥

بائع الجرائد ٢٩

مفيش حاجة ٣٣

أين سكان المدينة؟ ٣٧

عزرائيل يصل أولاً ٤١

نصيحة عم عوض ٤٥
فتاة الحي الراقي ٤٩
ساحات الغضب ٥٥
إيييه دنياااا ٥٧
الورقة الصغيرة ٦٣
الذهب المطفي ٧١
الطريق الإسفلتي ٨٣
قلب بلا جسد ٨٧
الضربة الأخيرة ٩٣
الصديق الوفي ٩٧
أحلام البرتقال ١٠٢
نصل السكين ١٠٧
الفرعون الصغير ١١١